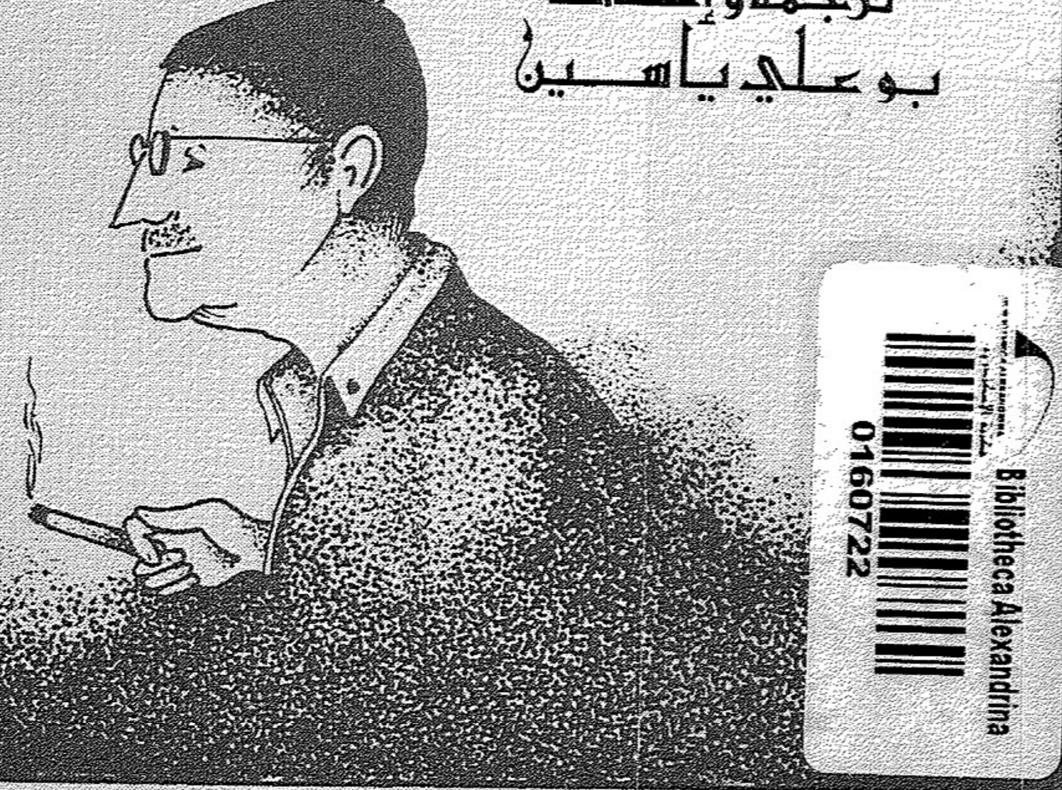
برتولت برشت

أوراق من الرزنامة

ترجمة وإعداد
بوعلي ياسين



قصص من الرزنامة

العنوان الأصلي للكتاب :

Bertolt Brecht

Kalendergeschichten

صدرت للمرة الأولى عن دار الأخوة فايس عام 1949 .
تمت هذه الترجمة عن طبعة دار ركلام في لايبزيغ عام 1968 .

* قصص من الرزنامة ـ * تأليف برتولت برشت ـ * الاعداد والترجمة عن الألمانية : بوعلي ياسين ـ * تصميم الغلاف : عصام حسن ـ * الطبعة الأولى 1992 ـ * التنضيد : دار الحوار باللاذقية ـ * الناشر مكتبة عين الزهور باللاذقية .

برتولت برشت

أوراق من الرزنامة

ترجمة وإعداد
بوعلي ياسين

تنويه

كنت قبل سنتين قد اتفقت مع الصديق عبدو زغبور على التعاون في ترجمة «قصص من الرزنامة» لبرتولت برشت . وأنجز عبدو مبدئياً ترجمة قصص : جندي لاسيوتا ، الابنان ، العجوز الوضيعة ، وأراد ترجمة قصتي : الاختبار ودائرة الصباشير الأوغسبورغية . لكنه ما أن شرع بترجمة القصتين الأخيرتين حتى اضطر (وهو دكتور في ا الفلسفة ، بحثاً عن لقمة العيش ، إلى الرحيل إلى أميركا اللاتينية . لذلك اضطررت بدوري ، عندما وجدت الوقت اللازم ، إلى أن أتابع الترجمة وأصدرها دون مشاركته ، ودون أن أنسى جهده وصداقته .

كانت غايتي من هذه الترجمة أن أعرف قراء العربية على برتولت برشت كقاص ، بعد أن عرفوه جيداً كمسرحي وكشاعر . وقد أخذت النصوص المترجمة عن كتاب «قصص من الرزنامة» ، كما هو مبيّن ، مع استثنائين اثنين : أولهما أنني تخليت عن الأشعار الواردة في الكتاب الأصلي واكتفيت بالقصص . وثانيهما أنني أضفت أربعاً إلى قصص السيد كوينر زيادة عما في الكتاب الأصلي ، القصتان الأوليتان نقلتهما عن كتاب : برتولت برشت ، كتاب للأطفال ، إعداد ر . هيل و هـ . رامتون ، برلين (ط 1 / 1965) ط 5 ، 1981 ، ص 91 ـ 92 ؛ والقصتان الأخيرتان عن كتاب :

برتولت برشت : حبارات من بحر الشمال ، إصدارغ . زايدل ، دار اويلن شبيغل ، برلين (1979 ؟) ، ص 164 ـ 165 و ص 168 ـ 169 . وإني لآمل في طبعة تالية أن أتمكن من إضافة جميع قصص برشت .

بو علي ياسين

اللاذقية ، صيف 1991

سقراط الجريح

سقراط ابن الداية ، الذي كان بحواراته الثنائية المدعمة بالدعابات المعبّرة قادرا بسهولة وبراعة ان يجعل اصدقاءه يولّدون الافكار الأصيلة ويزودهم بذلك ببنات افكار ينجبونها بأنفسهم خلافا للمعلمين الاخرين الذين كانوا يورطونهم بالأفكار الهجينة ، سقراط هذا لايُعتبر فقط أذكى الاغريق كافة ، بل وأشجعهم أيضاً(*) . ويبدو أن صيت الشجاعة مسوغا ، عندما نقرأ لدى أفلاطون ، كيف أفرغ سقراط في جوفه بلا تلكؤ أو تململ كأس السم الذي قدمته له السلطة الحاكمة أخيراً مقابل خدماته لابناء وطنه . غير أن بعض مريديه يرون من الضروري الحديث عن شجاعته في ميدان الحرب . بالفعل فقد شارك سقراط في معركة دليون ، تحديدا ضمن فرقة المشاة الخفيفة التسليح ، إذ لا وجاهته ـ وقد كان اسكافيا ـ ولا دخله ـ وقد كان فيلسوفا ـ كانا يسمحان بتجنيده في اسلحة الجيش الممتازة والغالية . على أن شجاعته كانت ، كما يمكن أن يتوقع المرء ، من نوع خاص .

---

*) أشكر للصديق محمود كبيبو مساعدته في ترجمة هذه البداية المعقدة الصعبة التي لم نتعودها من برشت الذي أراد المقابلة بين توليد سقراط للأفكار وتوليد أمه للأطفال . ـ المترجم .

في صباح يوم المعركة هيأ سقراط نفسه جيداً قدر المستطاع لتلك المهمة الدموية ، وذلك بأكل البصل ،لأن البصل برأي الجنود يمنح الجرأة والصمود . لقد جعلته ريبته في مجالات كثيرة ساذجاً في مجالات كثيرة أخرى . وقد كان ضد التكهنات ، مع التجربة العملية . وهكذا ، فما كان يؤمن بالآلهة ، إنما بالبصل .

للأسف لم يشعر سقراط بأي مفعول حقيقي للبصل ، على الأقل ليس فورياً ، فهكع منقبضاً ضمن فصيلة من المقاتلين بالسيوف ، التي تقدمت في صف أحادي إلى موقعها في أحد الحقول المحصودة . أمامه ووراءه كان يتكعبل شبان أثينيون من الضواحي ، وقد لفتوا نظره إلى أن تروس الترسانات الأثينية مصنوعة بشكل لا يتناسب مع أناس سمان مثله . هذه الفكرة كانت تراوده هو الآخر ، إنما كان هؤلاء السمان في نظره عراضا ، فلم تكن هذه التروس الرفيعة بشكل يدعو للسخرية لتغطي نصفهم .

انقطع تبادل الرأي هذا بين سقراط وبين الذي أمامه والذي وراءه حول مكاسب معامل الحدادة من التروس الصغيرة بصدور أمر بالانتشار .

استقر الجنود على الارض المحصودة . وتلقى سقراط تعنيفا من النقيب ، لأنه حاول أن يجلس على الترس . لكن ما أزعجه أكثر من البهدلة نفسها هو الصوت الخافت الذي تمت فيه هذه البهدلة . بدا أن ثمة تخمينا بأن يكون العدو قريبا .

كان ضباب الصباح الحليبي يمنع الرؤية . غير أن أصوات وقع الأقدام وصليل السلاح كانت تدل على أن السهل محتل من العدو .

تذكر سقراط بامتعاض شديد حديثا جرى في المساء الماضي بينه وبين شاب من الأكابر التقاه مرة وراء الكواليس ، وكان هذا ضابطا في سلاح الفرسان .

قال هذا المتعجرف : « خطة ممتازة . المشاة يقفون بكل بساطة هناك ، بأمانة

واخلاص متراصين ، ويلتقصون لطمة العدو . وفي هذه الأثناء ينحدر الفرسان إلى المنخفض ويأتونه من الظهر » .

لا بد أن المنخفض يقع بعيدا بعض الشيء إلى اليمين ، في مكان ما في الضباب . ينبغي إذن أن يكون الفرسان قد تقدموا الآن .

بدا لسقراط أن الخطة جيدة ، أو بأي حال ليست سيئة . على كلٍّ ، توضع دائما خطط ، خاصة إذا كان المرء دون العدو قوة . لكن في الواقع يقاتل المرء كيفما اتفق ، هذا يعني أنه يضرب خبط عشواء . ولا يفعل المرء ذلك حيث رسمت الخطة ، بل حيث يسمح العدو .

الآن ، في ضوء الصباح الرمادي ، بدت الخطة لسقراط في غاية الرداءة . ماذا يعني أن المشاة يلتقصون صدمة العدو ؟ عموماً يكون المرء سعيداً لو استطاع أن يتحاشى الصدمة ، والآن يفترض أن تكون الشطارة في التقاصها ! . إنه لسيء جداً أن يكون القائد نفسه من الفرسان .

ثم انه لا يوجد في السوق من البصل بقدر ما يحتاج الرجال البسطاء .

وكم هو غير طبيعي ، في الصباح الباكر ، بدل أن يستلقي المرء في الفراش ، أن يقعد في وسط حقل على الارض العارية ، حاملا على الاقل خمسة كيلو غرامات من الحديد على بدنه وسكينا حربية في يده ! . وإنه لصحيح أن يدافع المرء عن المدينة إذا ما هوجمت ، وإلا فان المرء سيتعرض فيها لضائقات كبيرة . ولكن ، لماذا تهاجم المدينة ؟ ذلك ، لأن أصحاب السفن ومالكي الكروم وتجار العبيد في آسيا الصغرى قد وقفوا في طريق أصحاب السفن ومالكي الكروم وتجار العبيد من الفرس ؛ سبب وجيه ! .

فجأة قبع الجميع كالجماد .

من الضباب الى الشمال سُمع صياح بعيد ، ترافق مع قرقعة معادن . ثم اقتربت

هذه الأصوات بسرعة . لقد بدأ هجوم العدو .

هبّت الفصيلة واقفة . بعيون جاحظة صار المرء يبحلق أمامه في الضباب . على بعد عشر خطوات إلى الجانب سقط رجل على ركبتيه وأخذ يدعو الآلهة متعتعاً . فات الأوان ، كما تبيّن لسقراط .

فجأة انطلقت كالجواب صيحة مخيفة في مكان أبعد إلى اليمين . ثم تحولت صيحة الاستغاثة هذه ، كما يبدو ، إلى صيحة موت . ورأى سقراط في الضباب قضيباً حديدياً صغيراً يطير قادما . كان رمحاً . ثم نبقت ، بشكل غير واضح في الضباب ، من قدام قامات ضخمة : الاعداء .

إذ ذاك هيمن على سقراط احساس بأنه ربما قد صمد أكثر من اللازم ، فاستدار بتثاقل وبدأ بالجري ، كان الدرع وواقيات الركب تعيقه في ذلك بدرجة كبيرة . كانت هذه اكثر خطراً بكثير من التروس ، فما كان المرء ليستطيع التخلص منها .

جرى الفيلسوف لاهثا فوق الحقل المحصود . كان كل شيء يتوقف على ما إذا كان قد كسب سبقاً كافيا . عسى أن يكون الشبان الطيبون وراءه قد التقصوا الصدمة لبعض الوقت . فجأة سرى فيه ألم جهنمي ، باطن قدمه اليسرى صار يلهب ، لدرجة أنه لم يظن أنه سيتحمل الألم . فارتمى على الارض وهو يئن ، لكنه وقف ثانية مع صرخة ألم جديدة . بعيون زائغة نظر حوله وأدرك كل شيء : لقد دخل في حقل من الاشواك .

كان خليطاً من الشجيرات القصيرة ذات أشواك حادة . أكان يجب أن تصيبه شوكة في قدمه ! . بكل حذر ، وبعيون دامعة ، أخذ يبحث عن موضع على الارض يستطيع فيه القعود . ثم حجل على القدم السليمة دائراً بضع خطوات ،قبل أن يستقر ثانية على الارض . كان عليه أن ينتزع الشوكة فوراً .

تنصت متحفزاً إلى ضوضاء المعركة : مد جسمه بعيداً إلى كلا الجهتين ،لكنه كان بعيداً عن الجهة الامامية بمئة خطوة على الأقل . على أنه بدا لنفسه أنه يقترب ، ببطء إنما بشكل مؤكد .

لم يستطع سقراط أن يخلع صندليه . فقد كانت الشوكة قد اخترقت النعل الرقيق وانغرزت عميقاً في اللحم . كيف يمكن للمرء ان يقدم للجنود الذين عليهم الدفاع عن الوطن أحذية رقيقة بهذا الشكل ! . أي ضغط على الصندل كان يتبعه ألم حارق . وهكذا أُنهك المسكين وتهدّل كتفاه الضخمان . ما العمل ؟

التقت عينه الخابية بالسيف إلى جانبه . فومضت في دماغه فكرة ، كانت أحب إليه من أية فكرة خطرت له في مناظراته : ألا يستطيع المرء أن يستخدم السيف كسكين ؟ وقبض على السيف .

في هذه اللحظة سمع خطوات بعيدة . مجموعة صغيرة كانت تمشي في الحرش . الحمد للآلهة ، أنهم كانوا من جماعته ! . عندما رأوه ، توقفوا بضع ثوان . وسمعهم يقولون : هذا هو الاسكافي . ثم تابعوا سيرهم .

لكن ، إلى اليمين منهم سُمعت الآن جلبة أخرى . هناك كانت تصدر الاوامر بلغة غريبة : إنهم الفرس .

حاول سقراط أن يقف ثانية على قدميه ، أي أن يقف على قدمه اليمنى . استند إلى السيف ، وكان هذا قصيراً بعض الشيء. ثم رأى كتلة من المقاتلين تظهر إلى اليسار في بقعة جرداء . وسمع أنيناً وصوت ارتطام الحديد بالحديد أو بالجلد .

أخذ يحجل بصورة يائسة على القدم السليمة متقهقراً . إذ ذاك اختل توازنه ، فعاد واقفاً على قدمه الجريحة ، وانهار على الأرض متأوهاً . عندما صارت كتلة المقاتلين ـ ولم تكن كبيرة ، بل حوالي عشرين إلى ثلاثين رجلاً ـ على بعد خطوات قليلة ، كان

سقراط قاعداً في حالة يأس وراء دغلتين من الأشواك وينظر إلى العدو .

كان يستحيل عليه أن يتحرك . أي شيء كان أهون عليه من أن يذوق مرة أخرى ذلك الألم في قدمه . لم يدر ماذا يفعل ، وفجأة شرع بالصراخ .

بالوصف الدقيق كان الأمر هكذا : لقد سمع نفسه يصرخ ، سمع نفسه يصرخ من جوف بطنه مثل البوق : « إلى هنا ، يا فصيلة ثالثة ، انقضوا عليهم ، يا شباب ! » وفي نفس الوقت رأى نفسه كيف قبض على السيف ولوّح به دائرياً من حوله ، ذلك لأنه انتصب أمامه ، وقد نبق من دغلة ، جندي فارسي مع رمحه . فطار الرمح وجرف الرجل معه .

وسمع سقراط نفسه يصرخ ثانية ويقول : « ولا خطوة إلى الوراء ، شباب . هاهم الآن حيث نريد ، أولاد الكلب . كرابولوس ، إلى الأمام مع الفصيلة السادسة ! نولوس ، إلى اليمين ! سأفرم فرماً من يتراجع ! » .

لدهشته رأى إلى جانبه اثنين من جماعته يبحلقان فيه . فهمس لهما : « اصرخا ، من شان الألهة ، اصرخا » . أحدهما ارتخى حنكه من الرعب ، لكن الآخر شرع فعلاً بالصراخ ، يصرخ بأي شيء . في هذا الوقت نهض الفارسي أمامهم بتثاقل وهرب إلى الأدغال .

ومن جهة الصحو قدمت تتدهبل دزينة من الرجال المنهكين .

أخيراً على أثر الصراخ اندفع الفرس هاربين ، خشية أن يكونوا قد وقعوا في كمين

« ماذا يجري هنا ؟ » ، سأل أحد مواطني سقراط الذي كان ما يزال قاعداً على الارض . قال له : «لا شيء . لا تقف هكذا حولي وتبحلق فيّ . الأفضل لو تجري إلى هنا وهناك وتعطي الأوامر ، كي لا يلاحظوا هناك كم عددنا قليل » . فقال الرجل

متردداً : « الأفضل لو أننا نتراجع » . فاستنكر سقراط قائلاً : « ولا خطوة أأنتم أرانب ؟! » .

وبما أن الجندي لا يكفيه الخوف ، بل يحتاج أيضاً إلى الحظ ، فقد سُمع فجأة من مكان بعيد بعض الشيء، إنما بوضوح تام ، وقع أقدام الأحصنة وصيحات وحشية ، وقد كانت باللغة الاغريقية ! والكل يعلم ، كم كانت الهزيمة ماحقة للفرس في ذلك اليوم . لقد انتهت الحرب .

عندما جاء ألكيبيادس على رأس الفرسان إلى حقل الاشواك ، شاهد كيف كانت زمرة من الجنود المشاة تحمل رجلاً سميناً على الأكتاف . وعندما أوقف حصانه علم أنه سقراط . وشرح له الجنود بأن سقراط بمقاومته العنيدة هو الذي دفع الصفوف المتضعضة في المعركة إلى الصمود .

حمل الجنود سقراط مع تهليلات النصر إلى قافلة العربات . وهناك وضعوه رغم احتجاجاته على عربة مؤن . ووصل عائداً إلى العاصمة وهو محاط بالجنود المسبّحين بالعرق والهاتفين بحماس . وهناك حملوه على الأكتاف إلى بيته الصغير .

كانت زوجته اكسانتبه تطبخ له شوربة فاصوليا . وفيما هي منحنية أمام الموقد تنفخ النار بملء فيها ، كانت ترمقه ببعض النظرات . كان ما زال جالساً على الكرسي التي وضعه عليها زملاؤه .

سألته بارتياب : « ماذا حدث لك ؟ » .
تمتم لها : « لي ؟ لا شيء ! » .
فاستفهمت : « إذن ما هذه الثرثرة عن أعمالك البطولية ؟ » .
قال لها : « مبالغات . يالها من رائحة زكية !» .
فقالت مغضبة : « كيف لك أن تشم رائحتها وأنا لم أوقد النار تحتها بعد ! .

جعلت من نفسك أحمق مرة أخرى ، أليس كذلك ؟ غداً ، عندما أذهب لجلب الخبز ، يمكنني أن أسمع مضحكاتك ثانية » .

- « لم أجعل من نفسي أحمق بأي شكل ، لقد أُصبت » .

- « كنت سكراناً ؟ » .

- « لا ، جعلتهم يصمدون بعد أن تقهقروا » .

- «أنت لا تقدر أن تجعل نفسك تصمد » . قالت هذا وهي تنتصب واقفة بعد أن أشعلت النار . وتابعت : « اعطني المملحة من على الطاولة ! » .

قال بهدوء وهو يصفن : « لا أعلم ، ربما كان الأفضل لي أن لا أتناول شيئاًعلى الاطلاق . لقد آذيت معدتي قليلاً » .

- « أما قلت لك ، أنت سكران ؟ . حاول أن تقف وأن تتمشى في الغرفة ، عندئذٍ سنرى » .

أحس سقراط بمرارة الظلم . لكنه لم يرد بأي حال أن يقف ويبين لها بأنه ليس قادراً على المشي . كانت ذكية إلى أبعد الحدود ، عندما يتعلق الأمر باستكشاف شيء لغير صالحه . ولم يكن لصالحه أن يظهر السبب الأعمق لصموده في المعركة .

في الوقت الذي كانت لا تزال تحوص منشغلة بالقدر على الموقد أسرّت له بما يجول في خاطرها : « أنا متأكدة من أن أصدقاءك اللطفاء قد دبروا لك عمل سخرة في الخطوط الخلفية ، في المطبخ الميداني . وما هذا سوى إقصاء » .

بألم أخذ ينظر من خلال الطاقة الى الزقاق حيث كان أناس كثيرون يطوفون بالمصابيح البيضاء يحتفلون بالنصر .

أصدقاءه المحترمون لم يحاولوا شيئاً كهذا ، وهو ما كان ليتقبله ، على كل حال ليس بهذه البساطة .

ـ « أم أنهم لم يجدوا غضاضة في أن يزحف معهم اسكافي ؟! لن يحركوا أصبعاً واحدة من أجلك . هو اسكافي ، يقولون لأنفسهم ، ويجب أن يبقى اسكافياً . وإلا كيف ستتمكن من الذهاب إليه في جحره الحقير ونثرثر معه ساعات ونسمع العالم كله يقول : انظروا ، سواء كان اسكافياً أم لم يكن ، فهؤلاء الناس اللطفاء يجلسون إليه ويتحدثون معه في الفلفسة . زمرة حقيرة ! » .

قال لها برباطة جأش : « اسمها فلسفة » . فرشقته بنظرة غير ودية وهي تقول : « لا تجعل من نفسك دائماً معلماً لي . أنا أعلم أنني غير متعلمة . لولاي لما وجدت أحداً يقدم لك من وقت لآخر طشت ماء لتغسل قدميك » .

أصابته رجفة ، وأمل أن لا تكون قد لا حظت ذلك . اليوم لا يجوز بأي حال أن يصل الامر إلى غسل القدمين . الحمد للآلهة أنها تابعت حديثها .

ـ « إذن أنت لم تكن سكراناً ولم تكلف بأعمال سخرة . إذن قمت بدور المقاتل . هناك دم على يدك ، هاه ؟ ولكن ، عندما أمعس عنكبوتاً ، تنفجر صارخاً . ليس ، كما لو أني أصدق بأنك فعلاً قد أثبت جدارة . ولكن ، ثمة أمر خبيث ، فعل ماكر ، لا بد أنك قمت به ، حتى ربتوا لك على كتفك . لكنني سوف أكشف عن ذلك . كن على ثقة ! » .

الآن اصبحت الشوربة جاهزة . كانت رائحتها مغرية . تناولت المرأة القدر ووضعتها ، وهي تمسك المقبض بثوبها ، على الطاولة وبدأت تحتسي الشوربة بالملعقة .

فكر في نفسه ، أليس من الأفضل لو أنه استعاد شهيته . لكن فكرة أنه سيضطر عندئذ للذهاب إلى المائدة ، منعته من ذلك في الوقت المناسب .

انتابه شعور بعدم الارتياح ، شعور واضح بأن الامر لم ينقض بعد . بالتأكيد ستحدث في الفترة القادمة أشياء غير سارة . فلن يقف الامر عند حدّ أننا كسبنا معركة

ضد الفرس وعشنا في سلام . الآن ، في أول احتفالات النصر لن يتوجه التفكير بالطبع إلى من يعود الفضل في ذلك . الكل سيكون مشغولاً بالحديث عن بطولاته . إنما غداً أو بعد غد سيجد كل منهم بأن رفيقه قد نسب لنفسه كل المجد ، ويكون بالتالي مفضّلاً على الآخرين . عندئذ سيقلل الكثيرون من شأن بعضهم ، بأن يعلنوا بأن الاسكافي هو في الحقيقة البطل الرئيسي . أما الكيبيادس فهو بالاصل ليس محبوباً عند الناس ، وسيغبطهم أن يعلنوا له : أنت كسبت المعركة ، ولكن اسكافياً هو الذي أمكنك من ذلك .

والشوكة كانت ما تزال تؤلمه أكثر من قبل . وإذا لم يخلع الصندل في القريب ، فربما حدث لديه تسمم في القدم .

قال وهو سارح الفكر : « لا تتلقمسي هكذا ؟ » .

تجمدت الملعقة في فم المرأة : « ماذا أفعل ؟! » .

فأسرع مذعوراً يؤكد لها : « لا شيء ، كنت سارحاً في أفكاري » .

ووقفت المرأة خارجة عن طورها ، أشعلت النار في الموقد تحت القدر وخرجت .

تنفس الصعداء . بعجل عمل على القيام عن الكرسي وأخذ يحجل ، وهو ينظر حوله متهيباً ، إلى مضجعه في الخلف . عندما دخلت زوجته ثانية لتأخذ منديلها من أجل الخروج ، نظرت بارتياب ، كيف كان ملقى على مرجوحة النوم الملبّسة بالجلد دون حراك . فكرت للحظة ، أنه لا بد يحتاج إلى شيء ما . بل وجال في ذهنها أن تسأله عن ذلك ، فقد كانت شديدة الانصياع له . لكن ، خطر على بالها شيء أفضل وغادرت مبوزمة الحجرة ، كي تتفرج مع جارتها على الاحتفالات .

لم يهنأ سقراط بالنوم وأفاق مهموما . كان قد خلع الصندل ، لكنه لم يستطع الوصول إلى الشوكة . وقد أصبحت قدمه شديدة التورم .

زوجته كانت صباح اليوم أقل حدة .

مساء اليوم الماضي كانت قد سمعت كل المدينة تتحدث عن زوجها . . لا بد أنه قد حدث فعلاً شيء ما جعل الناس متأثرة هكذا . أما أن يكون هو قد أوقف صفاً من المهاجمين الفرس ، فهذا ما لم يدخل في رأسها . ليس هو من يفعل ذلك ، قالت في نفسها . نعم ، هو يقدر أن يوقف جمعاً كاملاً من الناس بتساؤلاته . ولكن ليس صفاً من المهاجمين . فماذا حدث إذن ؟

كانت غير واثقة لدرجة أنها أحضرت له حليب الماعز إلى المضجع .

ولم يكن لدى سقراط الحيل للوقوف .

سألته : «ألا تريد الخروج ؟ » .

همتر : «ما عندي رغبه » .

ليس هكذا يجيب المرء على سؤال لطيف من قبل زوجته ،لكنها فكرت في نفسها ، لربما أراد فقط تجنب نظرات الناس ، وهكذا مررت الجواب .

باكراً قبل الظهر وصل زوار .

كانوا زوجاً من الشباب ، من أبناء أسر ميسورة ، من الوسط الذي يحتك به سقراط عادة .كانوا يعاملونه دائماً كأستاذ لهم ، وبعضهم كان يسجل ما يقوله لهم باعتباره شيئاً مميزاً .

اليوم أخبروه مباشرة بأن أثينا بكاملها تتحدث عن بطولته . إنه يوم تاريخي للفلسفة (هكذا معها حق إذن بأن إسمها فلفسة وليس شيئاً أخر) . فسقراط قد برهن بأن متبصرّاً كبيراً يمكن أن يكون أيضاً ممارساً كبيراً .

استمع سقراط إليهم دون سخريته المعهودة . وفيما كانوا يتكلمون ، أحس وكأنه يسمع من بعيد ، كما يسمع المرء عاصفة بعيدة ، مضحكة هائلة ، مضحكة مدينة بأكملها ،مضحكة بلد ، من بعيد ، إنما مقتربة ،لا يقف في وجهها شيء ،تصيب

الجميع ،المارة في الشوارع ، التجار والساسة في الأسواق ،الحرفيين في دكاكينهم الصغيرة . . .

فجأة قال لهم بحزم :« هراء كله هذا الذي تقولونه . أنا لم أصنع شيئاً».

نظروا إلى بعضهم مبتسمين ، ثم قال أحدهم :« تماماً هذا الذي قلناه لبعضنا . كنا نعلم أنك سوف تنظر إلى الامر هكذا . ما هذه الضجة الآن فجأة ، سألنا اويسوبولوس أمام النادي . منذ عشر سنوات وسقراط يقدم أعظم المنجزات العقلية ، في حين لا أحد يلتفت اليه . الآن كسب معركة واحدة ، وكل أثينا تتحدث عنه . قلنا ، ألا ترون كم هذا مخجل ؟ ! » .

زفر سقراط من الأعماق وقال : « ولكنني لم أكسب أية معركة على الاطلاق . دافعت عن نفسي ، لأنني هوجمت . هذه المعركة لم تكن تهمني . فأنا لست تاجر سلاح ولا صاحب كروم في المنطقة . لم أكن أعلم من أجل ماذا أقاتل . وجدت نفسي بين أناس عقلاء من الضواحي لا مصلحة لهم بالمعارك ، وأنا فعلت تماماً ما فعلوه هم ايضاً ، إنما قبلهم ببضع لحظات على الأكثر » .

كانوا كمن ضُرب على رأسه .

ثم صاحوا : « ليس صحيحاً ، هذا ما قلناه أيضاً . هو لم يفعل أكثر من الدفاع عن نفسه . هذه طريقته في أن يكسب المعارك . اسمح لنا بأن نسارع إلى النادي . لقد قطعنا حديثنا هناك حول هذا الأمر ، من أجل أن نسلّم عليك » .

وذهبوا وهم غارقون باستمتاع في الحديث .

بقي سقراط مستلقياً وهو صامت ، يستند على مرفقيه ، وينظر إلى السقف المسوّد بالشحار . كان محقاً في توجساته .

كانت زوجته تراقبه من زاوية الغرفة ، وترقع بصورة آلية ثوباً قديماً . فجأة قالت بهدوء : « إذن ما وراء ذلك ؟ » .

انتفض بأجمعه . ونظر اليها مضطرباً .

كانت كائناً كادحاً ، بصدر كاللوح وعينين حزينتين . كان يعلم أنه يستطيع الاعتماد عليها . وهي سوف تقف إلى جانبه فيما لو قال تلامذته : سقراط ؟ أليس هذا هو الاسكافي الذي ينكر الألهة . لم تكن أحوالها حسنة معه ، لكنها لم تكن لتتذمر ، إلا أمامه . وما مرّ مساء دون أن يجد فيه على الرفّ رغيف خبز وقطعة شحم ، عندما كان يعود جائعاً من عند تلامذته الميسورين .

سأل نفسه ، ما إذا كان عليه أن يصارحها بكل شيء . ثم فكر في أنه سيضطر في الفترة القادمة لأن يقول في حضورها جملة من الأكاذيب والتلفيقات عن أعماله البطولية ، عندما يأتي أناس كما الآن ، وهذا ما لا يستطيعه إذا علمت بالحقيقة ، ذلك لأنه كان يحترمها .

لذلك ترك الأمر كما هو واكتفى بالقول : « شوربة الفاصوليا من مساء الأمس ، رائحتها الكريهة ملأت الحجرة » .

لم تزد على أن رشقته بنظرة مرتابة جديدة . بالطبع ما كانوا في حالة تسمح لهم بحفظ طعامهم . وسقراط ما اراد بقوله سوى أن يصرف ذهنها عن موضوعه . في داخلها نمت القناعة بأن ثمة مشكلة لديه . لماذا لا ينهض عن مضجعه ؟ هو في الحقيقة يتأخر دائماً في النهوض ، إنما بسبب كونه يذهب متأخراً إلى الفراش . لكنه البارحة استلقى باكراً . واليوم كانت المدينة بأكملها مستنفرة احتفالاً بالنصر . في الزقاق كانت جميع الدكاكين مغلقة . قسم من الفرسان كانوا الساعة الخامسة صباحاً عائدين من ملاحقة العدو ، فقد سمع الناس وقع حوافر الخيول . كان من هواة تجمعات الناس . في مثل هذه الأيام كان يتجول عادة بينهم من الصباح الباكر حتى المساء ويشتبك معهم في مناقشات . فلماذا إذن لا ينهض ؟ ! .

أظلم الباب ودلف أربعة من رجال البلدية . بقوا واقفين في وسط الحجرة ، وقال

أحدهم بلهجة رسمية ، إنما لطيفة تماماً ، بأن لديه مهمة بأن يُحضر سقراط إلى مجلس المدينة . فالقائد ألكيبيادس قدّم اقتراحاً بأن يكرّم على انجازاته الحربية .

في الزقاق كان ثمة لغط يدل على أن الجيران قد تجمعوا أمام البيت .

شعر سقراط بالعرق يتصبب منه . أدرك أن عليه الآن أن يقف ، وإذا رفض الذهاب معهم ، فلابد على الأقل من أن يقول وهو واقف شيئاً لطيفاً ويشيّع الجماعة إلى الباب . وأدرك أنه لن يقدر على أن يمشي أبعد من خطوتين . وعندئذ سيرون قدمه ويعرفون كل شيء . عندئذ ستبدأ المضحكة ، هنا والآن .

وهكذا ، بدل أن ينهض ، بقي مسترخياً على السنادة ، وقال متذمراً : « أنا لا أحتاج إلى تكريم . قولوا للمجلس ، بأنني قد تواعدت مع بعض الأصدقاء للالتقاء الساعة الحادية عشرة من أجل مناقشة قضية فلسفية تهمنا ، لذلك آسف لكوني لا استطيع الحضور . أنا لا أصلح مطلقاً للاحتفالات الرسمية ، وأشعر بالتعب الشديد . » .

وقد أضاف الجملة الأخيرة ، لأنه تكدر لكونه حشر الفلسفة في الأمر . وقال الجملة الأولى ، لأنه أمل بجفائه أن يتخلص منهم بأيسر طريقة .

بالفعل فهم رجال البلدية هذه اللغة . فاستداروا على أعقابهم وانصرفوا يدوسون أقدام الشعب الذي تجمهر في الخارج .

ـ « انتظر ، لسوف يعلمونك كيف تكون مهذباً مع أصحاب المناصب » ، قالت زوجته هذا منزعجة وذهبت إلى المطبخ .

انتظر سقراط حتى أصبحت في الخارج ، ثم أدار جسمه الثقيل بسرعة في الفراش ، وقعد على طرف السرير ، وهو ينظر بطرف عينه إلى الباب ، وحاول بحذر لا متناه بأن يدعس على قدمه المريضة . بدا ذلك مستحيلاً . فاستلقى إلى الوراء وهو يتصبب من العرق .

مرت نصف ساعة . تناول كتاباً وأخذ يقرأ . إذا أبقى قدمه ساكنة ، فإنه لا يشعر بشيء تقريباً .

جاء بعدئذ صديقه أنتيستينس .

لم ينزع عنه مشلحه السميك ، بقي عند طرف المضجع واقفاً ، سعل بصورة تشنجية ، وحكّ لحيته المبعثرة على رقبته ، وهو ينظر إلى سقراط :

ـ « أما زلت مستلقياً ؟ ظننت أني لن ألقى سوى اكسانتيبه . لقد نهضت خصيصاً لأستعلم عنك . كنت مزكوماً جداً ، ولذلك لم أستطع الحضور البارحة » .

قال له باقتضاب : « اجلس ! » .

أحضر أنتيستينس كرسياً لنفسه من القرنة وجلس إلى صديقه : « سأعاود الدروس اليوم مساء . ما من سبب للانقطاع أكثر من ذلك » .

ـ « لا » .

ـ « لقد سألت نفسي بالطبع عما إذا كانوا سيأتون . اليوم يوم المآدب العظيمة . ولكن في الطريق التقيت بالشاب فيستون . وعندما قلت له ، بأنني سوف أدرّس اليوم الجبر ، أبدى تحمساً . فقلت له ، بأنه يستطيع المجيء بخوذته . سوف ينفجر فيثاغورث والآخرون من الانزعاج ، عندما يقولون لهم ، بأنهم بعد المعركة تابعوا دروس الجبر لدى انتيستينس » .

مرجح سقراط نفسه بعض الشيء بأرجوحة نومه ، بأن دفع بظاهر يده على الجدار المائل قليلاً . بعينين جاحظتين نظر متفحصاً إلى صديقه : « هل صادفت أحداً آخر في طريقك ؟ » .

ـ « الكثير من الناس » .

نظر سقراط منقبضاً باتجاه السقف . هل عليه أن يحلب صافياً مع أنتيستينس ؟

كان واثقاً منه إلى حد بعيد . فهو شخصياً لم يأخذ أبداً نقوداً على الدروس ، ولذلك ليس منافساً لأنتيستينس . لربما وجب عليه فعلاً أن يعرض عليه حالته الصعبة .

نظر انتيستينس بعينيه المتقدتين بفضول إلى صديقه وأخبره : « جورجياس يدور بين الناس ويحدثهم بأنك هربت من المعركة ، وأنك في حالة البلبلة اتخذت الوجهة الخاطئة ، فاتجهت إلى الأمام . ويقال أن زوجاً من الشباب الطيبين قد عملوا له عَلْقة على ذلك » .

نظر سقراط متفاجئاً بصورة غير سارة . فقال له متكدراً : « هراء » . فجأة اتضح له ما سيكون بيد أعدائه من سلاح ضده ، إذا كشف أوراقه . في الليل ، قبيل الفجر ، فكّر ، لربما أمكنه أن يقلب القضية كلها إلى تجربة ، ويقول بأنه أراد أن يرى كم الناس سريعو التصديق . فمنذ عشرين سنة وهو يدعو في كل الأزقة إلى المسالمية ، وإشاعة واحدة تكفي ليرى فيه تلامذته وحشاً كاسراً إلى آخره إلى آخره . ولكن هذا يعني أن المعركة ما كانت لتُكسب . من الواضح أن هذا ليس الوقت المناسب للمسالمية . فبعد الهزيمة يكون حتى القادة مسالمين لفترة . وبعد النصر يكون حتى صغار الناس من أنصار الحرب ، لفترة على الأقل ، إلى أن يلاحظوا بأن النصر والهزيمة ليسا مختلفين كثيراً بالنسبة لهم . لا ، الآن لا يستطيع أن يتباهى بالمسالمية .

من الزقاق تناهى اليه دربكة أحصنة . توقف فرسان أمام البيت ، ودلف إلى الداخل بمشيته المتمايلة ألكيبيادس وصاح مشرقاً :

ـ « صباح الخير ، ياأنتيستينس . كيف حال سوق الفلسفة ؟ إنهم غاضبون . في مجلس المدينة يرغون ويزبدون بسبب جوابك ، ياسقراط . وحباً بالنكتة غيّرت اقتراحي من تقليدك اكليل الغار إلى ضربك خمسين عصا . بالطبع استاءوا من ذلك ، لأنه وافق مزاجهم تماماً . ومع ذلك ، فلا مفر لك من المجيء معي . سوف نسير معاً ، على الأقدام ! » .

زفر سقراط . كانت علاقته جيدة مع الشاب الكيبيادس . وقد شربا مراراً سوية . كانت بادرة لطيفة منه أن يبحث عنه . بالتأكيد لم يكن الأمر مجرد رغبة في إهانة مجلس المدينة . وحتى هذه الرغبة الأخيرة محترمة ويجب دعمها .

بالأخير قال سقراط متفكراً وهو يتابع التأرجح في مرجوحة نومه : « العجلة ريح ترمي السقاله . اجلس ! » .

ضحك الكيبيادس وسحب لنفسه كرسياً . وقبل أن يجلس انحنى لأكسانتيبه التي وقفت في باب المطبخ وهي تنشّف يديها بثوبها .

قال نافذ الصبر : « أنتم الفلاسفة أناس مضحكون . ربما يؤسفك أنك قد ساعدتنا في كسب المعركة . لا بد أن أنتيستينس قد لفت نظرك إلى أنه لم تكن هناك أسباب كافية لذلك ؟ » .

ـ « نحن تحدثنا عن الجبر » ، قال انتيستينس بسرعة وعاد إلى السعال .

ابتسم الكيبيادس بخبث : « أنا لم أتوقع غير ذلك . كل المطلوب أن لا تثار ضجة حول الأمر ، أليس كذلك ؟ برأيي أنها كانت ببساطة شجاعة . تريدان القول ، ليس شيئاً مميزاً . حسناً ، ولكن ما المميّز في قبضة أوراق من الغار ؟ كزّ على أسنانك ودع الأمر يمر ، ياعجوز ! سيمر بسرعة ودون ألم . ثم نذهب بعدئذ لنشرب دمعة » . وبفضولية نظر إلى هذا الجسد المقتدر العريض الذي ارتمى الآن في حالة تارجح شديد نسبياً .

فكر سقراط بسرعة . خطر بباله شيء يستطيع قوله . يمكن أن يقول إنه البارحة ليلاً أو اليوم صباحاً قد التوت قدمه . مثلاً ، عندما أنزله الجنود من على أكتافهم . بل إن في ذلك نقطة لصالحه . فهذا الحادث يشير كيف يمكن بسهولة أن يتأذى المرء من تكريم مواطنيه له .

وبدون أن يتوقف عن التأرجح ، انحنى إلى الأمام بحيث انتصب جذعه وهو

قاعد ، ومسّد بيده اليمنى على ذراعه اليسرى العارية ، وقال بهدوء : « المسألة هكذا ، قدمي . . » . عندما تفوه بهذه الكلمة التقى نظره الحائر ـ إذ بدأ الآن يتلفظ بأول كذبة حقيقية في الموضوع ، حتى الآن كان ما زال صامتاً ـ بأكسانتيبه في باب المطبخ .

خانه لسانه . فجأة لم تعد لديه الرغبة بأن يسرد قصته . قدمه لم تلتو . وتوقفت مرجوحة النوم .

من ثم قال بحمية وبصوت منتعش : « اسمع ، ياألكيبيادس . لا يمكن في هذه الحالة الحديث عن الشجاعة . مباشرة عندما ابتدأت المعركة ، أي عندما ظهرت لي طلائع الفرس ، لذت بالفرار ، وفي الاتجاه الصحيح ، إلى الوراء . لكن ، كان هناك حقل من الشوك . فداست قدمي على شوكة ولم أستطع المتابعة . عندئذ أخذت أضرب حولي مثل الوحش ، كدت أصيب بعضاً من جماعتي . من عزة الروح جعلت أصرخ بشيء ما عن فصائل أخرى ، كي يظن الفرس بوجود شيء من ذلك . وكان هذا سخافة ، لأن الفرس بالطبع لا يفهمون الاغريقية . من ناحية أخرى بدوا هم أيضاً متوتري الأعصاب . فلم يستطيعوا احتمال هذا الصراخ ، بعد كل ما احتملوه عند التقدم . فأحجموا لحظة ، وعندئذ جاء فرساننا . هذا كل شيء » .

لبضع ثوان هيمن السكون على الحجرة . ألكيبيادس حملق فيه . أنتيستينس سعل من وراء يده المرفوعة أمام فمه ، هذه المرة بصورة طبيعية . ومن باب المطبخ ، حيث وقفت اكسانتيبه ، صدرت قهقهة مجلجلة .

بعدها قال أنتيستينس بجفاف : « وبالطبع ما كنت لتستطيع المشي إلى مجلس المدينة ، والصعود حَجْلاً على الدرج كي تتقبل اكليل الغار ، مفهوم » .

أسند ألكيبيادس ظهره في كرسيه إلى الخلف ، وتأمل بعينين مزوّكتين الفيلسوف في مضجعه . لكن ، لا سقراط ولا أنتيستينس نظرا اليه .

انحنى ثانية إلى الأمام ، وشبك يديه على إحدى ركبتيه . وجهه الصبياني النحيل

اضطرب قليلاً ، لكنه لم يُسفر عن شيء من أفكاره أو مشاعره : « ولماذا لم تقل بأنك أُصبت بجرح آخر ؟ » .

قال سقراط باقتضاب : « لأن الشوكة كانت في قدمي » .

قال ألكيبيادس : « آ ، لذلك ؟ ! فهمت » ، وانتصب بسرعة وتقدم إلى الفراش . « خسارة أنني لم أجلب معي اكليل غاري . لقد سلمته لمرافقي . وإلا لكنت تركته لك الآن . لك أن تصدقني ، بأنني أعتبرك شجاعاً دون انتقاص . أنا لا أعرف أحداً يتحدث في مثل هذه الظروف بما تحدثت أنت فيه » . ثم خرج مسرعاً .

فيما بعد ، عندما غسلت اكسانتيبه قدمه وانتزعت منها الشوكة قالت مستاءة : « كان يمكن أن يحدث تسمم في الدم » .

فقال الفيلسوف : « على الأقل » .

* * *

يوليوس قيصر والجندي

1 ـ قيصر

منذ بداية آذار عرف الديكتاتور أن أيام الديكتاتورية أصبحت معدودة .

لو أن غريباً جاء من إحدى الولايات لكان ربما وجد العاصمة أعظم من أي وقت مضى : كانت المدينة قد نمت بشكل غير طبيعي ، خليط ملون من الشعوب ملأ المساكن المزدحمة ، بنايات حكومية هائلة تنتظر الانجاز ، الوسط التجاري[1] يعج بالمشاريع ، الحياة التجارية تُبدي ملامح عادية ، العبيد رخيصو الثمن .

بدا النظام مستتباً . الديكتاتور كان قد نُصب لتوه ديكتاتوراً مدى الحياة ، ويحضّر الآن **لأعظم مشاريعه**، وهو احتلال الشرق ، الحملة التي طال انتظارها إلى بلاد فارس والتي ستكون حملة اسكندرية[2] ثانية حقاً .

عرف قيصر بأنه لن يعيش هذا الشهر . لقد وصل إلى قمة سلطانه . لم يبق أمامه إذن سوى الهاوية .

1) في الأصل : City . هذه الحاشية وجميع الحواشي اللاحقة من وضع المترجم .

2) نسبة إلى الفاتح الاسكندر المقدوني .

كان الاجتماع الكبير لمجلس الشيوخ في 13 آذار ، الذي خطب فيه الديكتاتور ضد « الموقف التهديدي للحكومة الفارسية » ، مصرّحاً بأنه قد جمع جيشاً في الاسكندرية عاصمة مصر ، قد كشف عن موقف لا مبال بشكل غريب ، بل بارد ، من قبل مجلس الشيوخ . أثناء الخطاب تناقل أعضاء المجلس قائمة غريبة بالمبالغ التي أودعها الديكتاتور باسماء مستعارة في المصارف الأسبانية : **الدكتاتور نقل ثروته الخاصة (110 ملايين) إلى الخارج** . لعله غير مؤمن بحربه ؟ أو ربما كان لا ينوي أصلاً أية حرب ضد الفرس ، بل ضد روما ؟ ـ كالعادة صادق مجلس الشيوخ بالاجماع على اعتمادات الحرب .

في قصر كليوباترا ، مركز الدسائس المتعلقة بالشرق ، كان بضع عسكريين مجتمعين . كانت الملكة المصرية هي الواعز الحقيقي للحرب ضد الفرس . وقد هنأها بروتوس وكاسيوس وضباط شباب آخرون على انتصار السياسة الحربية في مجلس الشيوخ . وأخذوا يضحكون ، مبدين إعجابهم بفكرة نشر قائمة المبالغ الغريبة . فالديكتاتور سوف يُفاجأ ، عندما يحاول جمع الاعتمادات المرصدة من الوسط التجاري . . .

بالفعل أُتيح لقيصر ، الذي لم يغب عنه برود مجلس الشيوخ رغم انقياده ، أن يلاحظ في الوسط التجاري أيضاً موقفاً في غاية اللاعقلانية . في غرفة التجارة عرض أمام رجال المال خارطة ضخمة ، معلقة على الحائط ، وشرح لهم خططه الحربية في بلاد فارس والهند . صار رجال المال يهزون برؤوسهم ، ثم بدأوا يتحدثون عن بلاد الغال التي أُحتلت منذ سنوات والتي مع ذلك قد تفجّرت فيها انتفاضات دموية من جديد . «التنظيم الجديد » لم يثبت فاعلية . وطُرح اقتراح : أليس من الأفضل لو أمكن تأجيل بدء الحرب إلى الخريف ؟ لم يجب قيصر ، وغادر المكان بفظاظة . فرفع الرجال أيديهم بالتحية الرومانية . أحدهم تمتم : « ما عاد عنده أعصاب ، هذا الرجل » .

لعلهم فجأة ما عادوا يريدون الحرب !

الاستطلاعات تعطي وقائع مذهلة : مصانع الأسلحة تحضّر بشكل محموم للحرب ، أسهمها آخذة بالقفز إلى الأعلى ، كذلك العبيد ترتفع أثمانهم . . .

ماذا يعني هذا ؟ يريدون حرب الديكتاتور ويمنعون عنه المال من أجل ذلك ؟

حتى المساء سيعلم قيصر ، ما الذي يعنيه هذا : **هم يريدون الحرب ، ولكن بدونه** .

أعطى قيصر الأمر باعتقال خمسة مصرفيين ، لكنه كان مهزوزاً في داخله لدرجة الانهيار العصبي ، مما أذهل مرافقه الذي عرفه هادئاً تماماً في قلب المعارك الدامية . عندما جاء بروتوس ، الذي يحبه كثيراً ، استعاد شيئاً من هدوئه . مع ذلك لم يشعر في نفسه من القوة ما يكفي لأن ينظر في ملف أرسله له أحد مخبريه من الوسط االتجاري . تضمن هذا الملف أسماء متآمرين . وهم يحضّرون للاعتداء على حياته . لقد خشي الديكتاتور أن يجد في هذا الملف السميك (« لقد كان سميكاً جداً ، سميكاً بشكل مرعب ») أسماء أليفة ، فأحجم عن فتحه . كان بروتوس بأمس الحاجة إلى كأس من الماء ، عندما أعاد قيصر الملف أخيراً إلى سكرتيره ، دون أن يفتحه ـ للمذاكرة لاحقاً ! .

في قصر كليوباترا حدث هلع شديد ، عندما جاء بروتوس شاحب الوجه ذاهلاً وأخبر أن ثمة ملفاً عن المؤامرة . في كل لحظة يمكن أن يقرأه قيصر . بصعوبة هدّأت كليوباترا الحاضرين ، مناشدة إياهم بشرفهم العسكري ، وأعطت هي بالذات الأمر لحاشيتها بالتأهب للرحيل .

في هذا الوقت ظهر قائد الشرطة لدى قيصر للتباحث . هو ثالث قائد للشرطة في هذه السنة التي لم يمض منها سوى شهرين ، الاثنان الأولان جرت تنحيتهم لتورطهم في المؤامرة . قال قائد الشرطة ، إنه يضمن للديكتاتور سلامته الشخصية ـ رغم

الاضطراب الذي نشأ في الوسط التجاري على أثر اعتقال المصرفيين ، الذين على كل حال يتمتعون بدعم من أوساط متنفذة . . . الحرب مع الفرس ، التي يبدو أن قائد الشرطة مقتنع بابتدائها قريباً ، سوف تُسكت ـ برأيه ـ المعارضة . أثناء استعراض قائد الشرطة للاجراءات الأمنية الواسعة التي يراها ضرورية ، كان قيصر ينظر من خلاله ، كما في الرؤيا ، كيف سيموت ، ذلك لأنه سيموت :

سوف يوعز بحمله إلى رواق بومبيي[3] ، ينزل هناك ، يتخلص من أصحاب الالتماسات ، يدخل المعبد ، يبحث بنظره عن هذا أو ذاك من الشيوخ ويحييه ، ويجلس إلى كرسي . بعض الطقوس سوف تُؤدى . إنه يراها أمامه . بعد ذلك سيتقدم المتآمرون نحوه بأية حجة ـ في رؤيا قيصر ليس لهم وجوه ، فقط بقع بيضاء مكان الوجوه ـ . أحدهم سيقدم له شيئاً للقراءة ، وهو سيمد يده إليه ، وعندئذ سينهالون عليه ، سوف يموت . لا ، بالنسبة له لن تكون هناك حرب في الشرق . ولن يُقيّض للأعظم من كل مشاريعه أن يتحقق :**أن يصل سالماً إلى سفينة**،تقلّه إلى قواته في الاسكندرية ، إلى المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون آمناً .

عندما كان الحرس أواخر المساء يرون بعض السادة يدخلون حجرات الديكتاتور ، كانوا ما زالوا يظنون أن هؤلاء قادة وخبراء عسكريون يريدون التباحث بشأن حرب الفرس . غير أنهم ما كانوا غير أطباء ، فالديكتاتور كان يحتاج إلى عقار منوّم .

اليوم التالي ، وهو الرابع عشر من آذار ، سار بشكل مضطرب ومؤلم . عند ركوبه إلى مدرسة الفرسان جاءته فكرة عظيمة : مجلس الشيوخ والوسط التجاري ضده ، وماذا بعد ؟ **سوف يتوجه إلى الشعب !** .

ألم يكن مرة مفوض الشعب العظيم ، الأمل الأبيض للديمقراطية ؟ وقتذاك كان

---

3) في الأصل : Porticus Pompejus

ثمة برنامج هائل ارعب به مجلس الشيوخ رعب الموت ، وهو توزيع الأراضي الزراعية وإسكان الفقراء . الديكتاتورية ؟ لا ديكتاتورية بعد الآن ! قيصر العظيم سوف يتنحّى ، سوف ينسحب إلى الحياة الخاصة ، يذهب مثلاً إلى أسبانيا . . .

كان متعباًعندما اعتلى الحصان ، وباستسلام تركهم يطوفون به أرجاء المدرسة ، ثم (بتأثير تفكيره بالشعب) انتصب في ركوبه ، شدّ الزمام ، وانطلق بالحصان حتى بلّله العرق ، لقد غادر مدرسة الفرسان رجلًا جديداً متنشطاً .

لم يكن الكثير من أولئك الذين يلعبون هذه اللعبة الكبيرة يشعر صباح اليوم بالاطمئنان الذي شعر به قيصر . . . كان المتآمرون ينتظرون الاعتقال . أقام بروتوس الحرس في حدائقه ، وفي أماكن متفرقة وضعت خيول في حالة الاستعداد . في العديد من البيوت حُرقت بُرديات[4] . وفي قصرها على نهر التيبر كانت كليوباترا تعدّ نفسها ليوم الموت . فلابد أن قيصر قد قرأ الملف . وها هي تزين نفسها بعناية ، تمنح عبيدها الحرية ، توزع الهدايا . فقريباً سيصل زبانية قيصر .

لقد ضربت المعارضة ضربتها البارحة . واليوم يجب أن تتبع الضربة المعاكسة من قبل النظام .

في المجلس الصباحي للديكتاتور اتضح كيف ستكون الضربة المعاكسة : في حضور عدد من الشيوخ تحدث قيصر عن خطته الجديدة . سوف يعلن عن انتخابات ، ويعتزل . شعاره الآن : ضد الحرب ! المواطن الروماني سوف يحتل الأرض الايطالية ، لا الفارسية . إذ كيف يعيش المواطن الروماني ، حاكم العالم ؟ قيصر يصف لهم ذلك .

وجوه متحجرة استقبلت الوصف المخيف لحرمان المواطن الروماني العامي . لقد نزع الديكتاتور عن وجهه القناع ؛ يريد تحريض الغوغاء . بعد نصف ساعة سيصبح

---

4) وهي التي كان يكتب عليها بدلاً من الورق في أيامنا .

كل من في الوسط التجاري على علم بما حدث . وهكذا ستزول العداوات بين الوسط التجاري ومجلس الشيوخ ، بين المصرفيين والضباط ، سيصبح الجميع متفقين على شيء واحد : ليسقط قيصر ! .

قبل أن ينهي كلمته ، عرف قيصر أنه قد أخطأ . ما كان عليه طبعا أن يكون بهذه الصراحة . إذ ذاك غيّر بغتة الموضوع ، مستعينا بظرفة المعهود : ليس لدى أصدقائه ما يخشونه ، أراضيهم ستكون في أمان . سوف تجري مساعدة الفلاحين للحصول على أراض ، ولكن هذا ستقوم به الدولة ، من وارداتها . سوف يكون الصيف جميلاً ، وهم مدعوون لضيافته في البايه[5] .

حالما شكره الحضور على دعوته وغادروا ، أمر قيصر بإقالة قائد الشرطة واعتقاله ، لأنه مساء البارحة كان قد أطلق سراح المصرفيين المعتقلين . ثم أرسل سكرتيره إلى الأوساط الديمقراطية كي يقفر مزاجها . الآن يتوقف كل شيء على موقف الشعب .

لم تكن الأوساط الديمقراطية سوى سياسيي النوادي الحرفية المنحلة منذ وقت طويل ،والتي كانت في العصر الذهبي للديمقراطية تلعب الدور الرئيسي في الانتخابات . كانت ديكتاتورية قيصر قد حطمت فيما مضى هذا الكيان بقسوة ، وشكلت من قسم من أعضائه حرساًمدنياً باسم نوادي الشوارع . ثم جرى حلّ هذه أيضاً . أما الآن فيبحث السكرتير تيتوس راروس عن سياسيي العامة كي يقفر مزاجهم .

تحدث السكرتير مع عريف سابق لصنف الحائكين ، ثم مع داعية انتخابي سابق ، هو الآن صاحب حانة . كلا الرجلين أبديا حذراً شديداً ،ونفوراً من التحدث في

5) مكان للسباحة والاستجمام زمن الرومان يقع شمالي نيبال في ايطاليا .

السياسة . وأشارا إلى العجوز كاربو ، الزعيم السابق لعمال البناء ، الذي يتمتع بأكبر التأثير ، **ذلك أنه يقبع في السجن** .

في هذه الأثناء تلقى قيصر زيارة هامة : كليوباترا . فلم تعد الملكة تتحمل توتر الأعصاب . تريد أن تعرف مصيرها . هي مستعدة للموت ، وكل فنون مصر قد سخرتها لاستثمار جمالها المشهور في القارات الثلاثة . بدا أن الديكتاتور ليس في عجلة من أمره . وكان معها ، كما كان دائماً في السنوات الأخيرة ، في غاية التهذيب ، مستعداً في كل وقت لبذل النصيحة ، يلمّح من آن لآن ، بأنه مستعد لأن يعود في الحال عشيقاً لها ، إذا أرادت ذلك ، هو الخبير بالجمال الأنثوي الذي لا يشق له بنان . إنما ، ولا كلمة في السياسة . جلسا في الردهة وأخذا يطعمان السمكات الذهبية ، وتحدثا عن الطقس ، ودعاها إلى البايه في الصيف . . .

لم تطمئن كليوباترا . يبدو أنه لم ينته بعد من ترتيباته للضربة المعاكسة ، هذا هو كل شيء ، كما يظهر . أخيراً انصرفت بوجه جامد . رافقها قيصر حتى محفتها ، ثم توجه إلى المكاتب ، حيث الحقوقيون وأمناء السر يعملون بشكل محموم على وضع مشروع لقانون انتخاب جديد . يجب أن يبقى المشروع سرياً : محظور على أي واحد ومغادرة القصر . **سوف يكون هذا الدستور الأكثر حرية من كل ما عرفته روما في حياتها** .

وبالطبع ، كل شيء يعود الآن الى الشعب . . .

ولما كان راروس قد طالت غيبته بشكل ملفت ـ ماذا هنالك للأخذ والرد ، يجدر بهؤلاء العامة أن يمدوا كلتا يديهم ، إذ يقدم لهم الديكتاتور هذه الفرصة الفريدة ـ ، يقرر قيصر الذهاب إلى سباق الكلاب . إنه يشعر بالحاجة لأن يقيم بنفسه اتصالاً بالشعب ، والشعب يتواجد في سباق الكلاب . الحلبة لم تكن ممتلئة تماما بعد . وقيصر لايتوجه الى المنصة الكبيرة ، بل يحتل مكانا إلى الأعلى بين الجمهور . فليس ثمة خشية

من أن يتعرف عليه الناس ،لأنهم ما رأوه قط إلا من بعيد .

تفرج قيصر بعض الوقت ، ثم راهن على أحد الكلاب . إلى جانبه جلس رجل، فشرح له قيصر لماذا راهن على هذا الكلب بالذات . فهزّ الرجل رأسه . ويبدو أن بعض الناس قد جلسوا على غير مقاعدهم ،فأبعدهم عنها قادمون جدد . حاول قيصر أن يدخل في حديث مع جيرانه ، عن السياسة . فكان جوابهم واحداً ، ثم أدرك بأنهم يعرفون من هو :لقد كان يجلس بين شرطته السرية .

وقف منزعجاً وانصرف . وبالمناسبة ، فقد ربح الكلب الذي راهن عليه . . .

أمام الحلبة التقى بسكرتيره الذي يبحث عنه . لم تكن لديه أخبار سارة . فما من أحد يريد التفاوض ، في كل مكان يسود الخوف أو الكراهية ، والشخص الذي يثقون به هو كاربو ، عامل البناء . استمع قيصر إلى سكرتيره وهو متجهم الوجه ، ثم صعد إلى محفته وأمر بحمله إلى السجن المارمرتيني . فقد أراد التحدث مع كاربو . كان ثمة ضرورة للبحث عن كاربو . ففي هذه المعاقل[6] يوجد كثير الكثير من سجناء العامة ، وهم يتخون هنا بالعشرات .لكن بعد زمن من الرواح والمجيء جرى بواسطة حبال طويلة انتشال عامل البناء كاربو من أحد الجحور ، وأصبح بإمكان الديكتاتور أن يتحدث إلى الرجل الذي يثق به شعب روما .

جلسا متقابلين يتأملان بعضهما . كان كاربو رجلاًكبير السن ، ربما ليس أكبر سناً من قيصر ، لكنه على أية حال يبدو في الثمانين من عمره . كان طاعناًفي السن ، ذابلاًإنما متماسكاً . شرح له قيصر دون مواربة مخططه العجيب . وهو إعادة الديمقراطية ، اعلان الانتخابات ، وأن ينسحب هو إلى حياته الخاصة الخ . الخ .

كل هذا والرجل العجوز صامت ، لم يقل نعم ، لم يقل لا ،بقي صامتا . حدّق

---

6) في الأصل : Casemattes

بجمود في قيصر ، ولم يصدر عنه أي حسّ . عندما رحل قيصر ، أدلوه بالحبال الطويلة ثانية إلى جحره . لقد انتهى الحلم بالديمقراطية . وأصبح واضحاً : إذا أرادوا الانقلاب ، فليس معه . فهم يعرفونه جيداً .

عندما عاد الديكتاتور إلى مقره ، لاقى السكرتير بعض الصعوبة في إفهام الحرس من هو . فهم جدد . إذ أن القائد الجديد للشرطة أبعد الحرس الروماني وزج في القصر عصبة من الزنوج . فالزنوج موثوقون أكثر . لا يفهمون اللاتينية وبالتالي لا يمكن بهذه السهولة جعلهم يصابون بعدوى المزاج السياسي في المدينة . . .

في القصر لم يمر الليل بهدوء . أفاق القيصر عدة مرات وتمشى في أرجاء القصر الممتدة ، في حين كان الزنوج يشربون ويغنون . لم يهتم به أحد ، لم يتعرف إليه أحد . استمع إلى إحدى أغانيهم الحزينة ، وخرج إلى الاسطبل يزور حصانه المحبوب . على الأقل الحصان تعرّف عليه . . . روما الخالدة مستلقية في إغفاءة قلقة . على أبواب التكايا ما زال حرفيون مفقرون مصطفين من أجل ثلاث ساعات نوم ويقرأون اعلانات كبيرة نصف ممزقة تدعو إلى للتطوع إلى كجنود في حرب الشرق التي لن تحدث . في حدائق أولاد الذوات[7] اختفى الحراس منذ ليلة البارحة .من القصور تنبعث أصوات سكرى . عبر البوابة الجنوبية للمدينة ينسلّ موكب صغير : ملكة مصر تغادر العاصمة وهي محجبة تماماً . في الساعة الثانية ليلاً يتذكر قيصر شيئاً ، فينتصب واقفاً ويذهب بلباس النوم إلى الجناح الذي ما زال يعمل فيه الحقوقيون على انجاز الدستور الجديد ، ويصرفهم إلى النوم .

قبيل الصبح يتلقى قيصر نبأ أن سكرتيره راروس قد اغتيل في الليل . من الواضح أن مباحثاته مع سياسيي العامة قد فشى سرّها ، فانقضت من الظلمة أيد قادرة . أيدي من ؟ القوائم التي كانت بحوزته بأسماء المتآمرين ، اختفت .

---

7) بالفرنسية في الأصل : Jeunesse Doree

لقد اغتيل راروس في القصر . إذن فالقصر لم يعد آمناً لأنصار الديكتاتور . فهل ما زال آمناً بالنسبة للديكتاتور نفسه ؟ .

وقف قيصر طويلاً أمام السرير الميداني ، حيث يرقد السكرتير الميت ، آخر ثقاته ، الذي دفع حياته ثمناً لهذه الثقة .

أثناء خروجه من الحجرة صدمه أحد الحراس بكتفه ، ولم يعتذر منه . وعندما نزل إلى الممشى ، نظر حواليه مراراً بعصبية .

في الردهة ، التي كانت خالية على غير العادة ـ إذ لم يحضر أحد المجلس الصباحي ـ ، صادف قيصر رسول أنطونيوس : القنصل وتابعه يقولون له ، إن عليه أن لا يذهب اليوم بأي حال إلى مجلس الشيوخ ، وثمة خطر يتهدد سلامته الشخصية هناك . فأرسل إليه قيصر يخبره ، بأنه لن يذهب إلى مجلس الشيوخ . ـ بدلاً من ذلك أمر بحمله إلى منزل كليوباترا ، ماراً بطريقه بالصف الطويل لأصحاب الالتماس ، المتواجد كل صباح أمام قصره . لربما تموّل كليوباترا حملته ؟ عندئذٍ لن يحتاج ، لا إلى الوسط التجاري ولا إلى الشعب .

غير أن كليوباترا لم تكن في المنزل . كان المنزل مغلقاً . يبدو أنها قد ذهبت في سفرةٍ بعيدة . . . فإلى القصر ثانية . كانت بوابة القصر مفتوحة بشكل مريب . فتبين أن الحرس قد انسحبوا . انحنى سيد العالم من على محفته ونظر إلى منزله الذي لم يعد يتجرأ على دخوله .

كان يستطيع أن يطلب من أنطونيوس تأمين حرس حماية . لكنه ارتاب في كل حرس . الأفضل له أن يذهب بدون حرس حماية ؛ فبذلك لن يحتاج على كل حال لأن يخشاهم . ولكن ، إلى أين يذهب ؟ وأعطى أمره : سيذهب إلى مجلس الشيوخ .

ارتمى في محفته مُسند الظهر ، لا ينظر يميناً ولا شمالاً . أوعز بحمله إلى رواق بومبيي . نزل هناك . تخلص من أصحاب الالتماسات ، دخل المعبد . بحث عن هذا

أو ذاك من الشيوخ ، وحيّاه . جلس على كرسيه . جرى تأدية بعض الطقوس . بعد ذلك تقدم المتآمرون نحوه بحجة من الحجج . لم تعد لهم بقع بيضاء فوق الأعناق كما في حلمه قبل يومين ؛ كان لهم جميعاً وجوه ، وجوه أفضل أصدقائه . أحدهم قدّم له شيئاً للقراءة ، مدّ يده إليه . ثم انهالوا عليه .

2 ـ الجندي

في غسق الصباح كانت عربة ثيران تمر عبر الحقول المخضرة بالربيع باتجاه روما . إنه الفلاح والمحارب القيصري القديم ذو الاثنين والثمانين عاماً تيرنتيوس سكابر مع الأسرة والعفش . وجوههم مهمومة . لقد طردوا من أرضهم الصغيرة لعدم تسديدهم ايجارها . فقط لوسيليا ذات الثماني عشر عاماً كانت تترقب المدينة الضخمة الباردة بعين سارّة : خطيبها يعيش هناك .

أثناء اقترابهم من المدينة لاحظوا أنها مقبلة على أحداث استثنائية . الرقابة على الحواجز مشددة ، بين الحين والحين كانت توقفهم دوريات عسكرية . ثمة إشاعات عن حرب كبيرة وشيكة الوقوع في آسيا . رأى المحارب القديم أكواخ التجنيد ، المعروفة لديه ، ما زالت فارغة في هذه الساعات الباكرة ، فعادت إليه الحياة . قيصر يخطط لحملات مظفرة جديدة . وها قد وصل تيرنتيوس سكابر في الوقت المناسب . إنه يوم 13 آذار عام 44 .

قرابة الساعة التاسعة قبل الظهر كانت عربة الثيران تمر عبر رواق بومبيي . جمع من الشعب ينتظر هنا قدوم قيصر والشيوخ إلى جلسة في المعبد ، حيث يفترض أن يسمع مجلس الشيوخ إلى «بيان هام من الديكتاتور» . كان الناس عموماً يتحادثون في الحرب ، لكن ما أثار دهشة سكابر هو أن دوريات عسكرية كانت تحاول دفع الناس إلى متابعة السير . فكان الحديث يتوقف ، حالما يظهر الجنود . في هذا الوقت كان هم

المحارب القديم أن يزمق بعربته . وعندما قطع نصف المسافة ، وقف في عربته واستدار إلى الخلف صائحاً : عاش قيصر ! لكنه استغرب أن أحداً لم يردد هتافه .

في حالة من تشوش الفكر آوى سكابر أسرته الصغيرة في فندق رخيص في الضاحية . وانطلق يبحث عن صهره المستقبلي ، سكرتير قيصر تيتوس راروس . ولم يرض أن ترافقه لوسيليا . فعليه بالأول أن يصفي الحساب مع هذا الشاب .

لم يكن سهلاً ، كما تبين له ، أن ينفذ المرء إلى قصر قيصر من الساحة .فالرقابة ، وخاصة على الأسلحة ، كانت شديدة للغاية . الجو متوتر !

في الداخل علم أن للديكتاتور أكثر من مئتي سكرتير . ولم يكن اسم راروس معروفاً من أحد .

بالفعل ، منذ ثلاث سنوات لم يعد راروس يقابل رئيسه في جناح مكتبة القصر . هو السكرتير الأدبي لقيصر وعليه أن يعاونه في انجاز مؤلَّف في النحو . وها هو المؤلف ملقى لم يمسّه الديكتاتور ، إذ لم يعد لديه وقت لمثل هذه الأشياء . كانت فرحة راروس لا توصف ، عندما خبّط الجندي القديم داخلاً . ماذا ؟ لوسيليا هنا في روما ؟ أجل ، هي هنا ، ولكن ما من سبب للسرور . فقد ألقيت الأسرة في الشارع ، وهذا بسبب لوسيليا أصلاً . كان بامكانها بلا حرج أن تكون تجاه مالك الأرض ، صناعي الجلود بومبيليوس ، متساهلة نوعاً ما . . . خاصة منذ أن انقطع راروس كلياً عن المجيء !ودافع الشاب عن نفسه بحماس . فهو لم يحصل على إجازة . وسوف يفعل ما بوسعه لمساعدة الأسرة . سوف ينال سلفة من الادارة . وسوف يستخدم ارتباطاته لمصلحة تيرنتيوس سكابر . ولماذا لا يصبح المحارب القديم نقيباً ، آخر الأمر ثمة حرب كبيرة على الأبواب !

في هذه اللحظة : وقع أقدام وصليل سيوف في الممر ، انفتح الباب بسرعة : على العتبة وقف قيصر .

وقف السكرتير الصغير جامداً أمام النظرة الفاحصة للرجل الكبير . فلأول مرة منذ ثلاث سنوات يظهر قيصر ثانية في غرفة عمله ! ولم يكن يدري أن مصيره قد وطأ العتبة للتو ! .

لم يأت قيصر لكي يشتغل في النحو . كل ما في الأمر أنه كان يبحث عن انسان يستطيع الوثوق به ، إذن عن إنسان يصعب ايجاده في هذا القصر .لدى مروره أمام المكتبة خطر على باله سكرتيره الأدبي ، شاب لا علاقة له بالسياسة . فلعله ليس مُفسَداً . . .

مع أن اثنين من الحرس الشخصي فتشا سكابر وألقياه خارجاً ، فقد خرج مزهوّاً : إذ لا يبدو أن صهره المستقبلي هو الأخير في هذا القصر .فقيصر العظيم يبحث عنه ، وهذا علامة خير .

كذلك جرى تفتيش راروس . إنما بعدئذ كلفه قيصر بمهمة : عليه أن يتوجه ، الأفضل بطريق مواربة ، إلى مصرفي اسباني معين ويستفهم منه مصدر المقاومة السرية للوسط التجاري ضد حرب قيصرفي الشرق .

في هذه الأثناء كان المحارب القديم ينتظر الشاب أمام القصر . وعندما لم يخرج ـ في الواقع خرج من باب خلفي ـ انصرف سكابر ليخبر أسرته بالتحول الايجابي . في الطريق مر على مكتب تطوع : هنا لا يقبلون لحمل السلاح سوى طلبات الشبان الصغار . سيكون مفيداً أن يكون للمرء دعم ويصبح نقيباً .لقد أصبح فعلاً كبيراًعلى أن يكون جندياً .

من هناك عرّج على بعض الحانات ، وعندما وصل إلى الفندق الصغير في الضاحية كان منتشياً بعض الشيء : باين أنه النقيب تيرنتيوس سكابر ، وانصب غضبه على خطيب لوسيليا الذي لم يظهر حتى الآن :هكذا إذن ، ليس لدى السيد السكرتير الصاعد وقت كي يسلم على خطيبته ؟ فمن أين ستعيش الأسرة ؟ هم في الحال بحاجة

ماسة إلى ثلاثمائة درهم على الأقل . فلتتفضل لوسيليا ولتبحث عن صناعي الجلود لتستدين منه النقود . إذ ذاك أجهشت لوسيليا بالبكاء : إنها لا تفهم ، لماذا لم يأت راروس بعد . صحيح ، السيد بومبيليوس لن يتردد في إعطائها الثلاثمائة درهم ، لكنه لن يفعل هذا دون مقابل . هنا غضب أبوها : لم يعد هناك أدنى شك بأن الشاب لم يعد « رغبان » . تلزمه نار تحت قفاه كي يتحرك . لا يجوز أن يظهر أن كل الاعتماد عليه . يجب أن يرى أنه ما زال هناك رجال آخرون يعرفون قدر لوسيليا . بعد هذا ذهبت لوسيليا باكية ، وهي ما تزال تتلفت مستطلعة راروس .

في هذه اللحظة كان راروس قد عاد ثانية إلى القصر . لقد حصل من المصرفي الاسباني على ملف وسلمه إلى قيصر . ثم راح يحاول الحصول على سلفة من الادارة . لكنه ، بدل أن يحصل على المال ، جرى التحقيق معه : أين ؟ وما المهمة التي كلفه بها الديكتاتور ؟ امتنع عن الاجابة ، فأعلموه بأنه مفصول من العمل .

كان نصيب لوسيليا من النجاح أوفر . على أنه في البدء قيل لها إن السيد بومبيليوس معتقل . وكان العبيد المضطربين ما زالوا يتكلمون عن هذا الحدث العجيب ، إنما المفهوم حيث أنه خاصة في الفترة الأخيرة قد عبّر مراراً عن عدائه للديكتاتور ، عندما دخل السيد بومبيليوس مبتسماً . « طبعاً» لم يستطيعوا إبقاءه هو وبقية سادة الوسط التجاري في السجن . لحسن الحظ ما زال لهم بعض النفوذ لدى الشرطة . فالسيد قيصر لم تعد له تلك السلطة في هذه الأيام . . .

عندما وصل راروس أخيراًإلى الفندق ، لم تكن لوسيليا قد عادت . كان المحارب القديم معكر المزاج ، وأبت الأسرة أن تصرح أين لوسيليا . كما أن راروس لم يجلب معه الثلاثمائة درهم . ولم يتجرأ على البوح باقالته من العمل ، بل ادعى بصوت ضعيف أن كل ما في الأمر أنه لم يتيسر له الذهاب إلى الادارة . ثم أقبلت لوسيليا باكية وارتمت بين ذراعيه . غير أن تيرنتيوس سكابر لم يجد سبباً للمداراة ، فسأل لوسيليا دون حياء عن

مدى النجاح في تسولها . وبدون أن تنظر في عيني راروس ناولت أباها الثلاث ـ مائة درهم . وقد كان بامكان راروس أن يجيب بنفسه على السؤال عن مصدر النقود : لوسيليا كانت عند صناعي الجلود !.

بلمح البرق انتزع الشاب النقود من يد العجوز : سوف يعيدها في الصباح للسيد بومبيليوس . وغداًباكراً ، الساعة الثامنة على أبعد حد سوف يجلب للوسيليا ما يكفي من النقود إلى الفندق . وبعدئذ سيذهب مع أبيها إلى قائد حرس القصر ويكلمه في تعيينه بمرتبة نقيب .

متبرماً أبدى المحارب القديم موافقته : على كلٍ لن يصعب على أمين سر حاكم العالم أن يساعد أسرة جندي قديم سابق الفضل كي تقف على قدميها . . .

في اليوم التالي انتظرت أسرة سكابر على راروس ، إنما بدون جدوى .

لقد جرى احضاره في الصباح الباكر لعند قـيصر . في المكتبة فتش مع الديكتاتور عن خطاب قديم ، كان قد ألقاه قبل سنوات طويلة وأوضح فيه برنامجه الديمقراطي . بعدئذ توجه السكرتير إلى أطراف المدينة ، ليستطلع الرأي لدى مختلف سياسيي العامة حول إعادة الديمقراطية . وكان الديكتاتور ، على فكرة ، قد أمر باستبدال حرس القصر واعتقال رئيسة الذي استجوب راروس قبل يوم .

في هذه الأثناء بدأ تيرنتيوس يفقد أمله . لم يعد يثق بخطيب ابنته . أما هي فقد أمضت الليل بطوله تبكي وانفجرت في وجه أبيها وأمها مصرحة لهم بما أراده منها صناعي الجلود . أمها انحازت إلى صفها . والمحارب القديم قرر أن يذهب ويسجل اسمه في مكتب للتطوع . وبعد تردد طويل اعترف لأسرته بأنه سيظهر عميّراً في فحص القبول . فتطوعت الأسرة لمساعدته كي يبدو أصغر سناً : لوسيليا أعارته قلم الزينة ،وابنه الصغير أخذ يراقب مشيته .

غير أنه عندما وصل إلى مكتب التطوع وجده مغلقاً . كان ثمة شباب أمام المكتب

يتحدثون بانفعال عن شائعة تقول إن الحرب في الشرق قد الغيت . فعاد الجندي الذي خاض عشر حروب مع القيصر محطماً إلى حضن أسرته ، ليجد رسالة من راروس إلى لوسيليا تتضمن أنهم مقدمون على أحداث كبيرة ، حيث جرت الآن صياغة قانون سيستلم بموجبه المحاربون القدماء مع قيصر أراضي ايجار وسلفاًمن الدولة . كانت فرحة الأسرة لا توصف .

كتب راروس رسالته في الصباح ، وعندما قرأها تيرنتيوس سكابر كانت الأحداث قد تجاوزتها . فقد أسفرت مساعي راروس عن أن سياسيي العامة السابقين ، وهم الذين لاحقهم قيصر لسنوات ،ما عادوا واثقين بحركاتهالسياسية الشطرنجية .

بحث راروس ، الذي وجد نفسه مراقباً ، عن سيده في القصر دون جدوى ، ولم يصادفه إلا بعد العصر في السيرك عند سباق الكلاب . في الطريق إلى القصر أعلم قيصر بالحقيقة المرعبة . بعد صمت طويل ،وقد انكشف له فجأة الخطر الهائل الذي يتربص بالديكتاتور ، قدم اقتراحاً يائساً : على قيصر أن يغادر في هذا الليل المدينة سراً ، ويحاول الهرب إلى بروندیزیوم كي يصل على سفينة من هناك إلى الاسكندرية وجيشه . ووعده أن يجهز له عربة ثيران . ـ كان قيصر مرتمياًفي محفته ،سانداً ظهره ،ولم يرد عليه .

لكن راروس قرر أن يهيىء للهروب . كان قد حلّ الشفق على روما الهائلة ، المضطربة ، العاجّة بالاشاعات ، عندما وقف راروس عند البوابة الجنوبية يفاوض حرس البوابة : بعد منتصف الليل سوف تمر عربة ثيران دونتصريح بالمرور . ثم أعطى الحرس المفاوض كل النقود التي بحوزته : ثلاثمائة درهم بالضبط .

عند التاسعة ظهر راروس في الفندق عند آل سكابر . عانق لوسيليا ، ثم طلب من الأسرة أن تدعه لوحده مع سكابر . بعدئذ تقدم نحو سكابر وسأله : ـ ماذا كنت تفعل من أجل قيصر لو لزم الأمر ؟ فسأله سكابر : ماذا حدث بشأن تأجير الأرض ؟

قال راروس : طوي الموضوع . وسأله سكابر : وطوي كذلك موضوع مرتبة النقيب؟ قال راروس : كذلك طوي موضوع مرتبة النقيب .ـ ولكنك ما زلت سكرتيراً عنده ؟ـ أجل .ـ وتلتقي به ؟ ـ نعم . ـ ولا تستطيع أن تجعله يفعل شيئاً من أجلي ؟ ـ لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً لأحد . لقد انهار كل شيء ، وغداً سيقتل مثل الجردون . . إذن ، ماذا تريد أن تفعل من أجله؟

بحلق الرجل العجوز في راروس غير مصدق : قيصر العظيم انتهى ؟ انتهى لدرجة أنه يحتاج إلى مساعدة تيرنتيوس سكابر ؟ ثم سأله بصوت مبحوح : بماذا أستطيع أن اساعده ؟ قال السكرتير بهدوء : لقد وعدته بعربتك . . عليك أن تنتظره منذ منتصف الليل عند البوابة الجنوبية . ـ لن يسمحوا لي أمر بالعربة . ـ سيسمحون لك ، لقد دفعت لهم ثلاثمائة درهم من أجل ذلك .ـ ثلاثمائة درهم ، نقودنا ؟ ـ نعم .

حدّجه العجوز بنظرة غاضبة تقريباً ، ثم شاب نظرته الارتباك المتذمر لمن أمضوا نصف عمرهم في التدريب العسكري ، وأشاح بوجهه متمتماً : ربما كان هذا تماماً مثل أية صفقة ، فحالما يصبح خارجاً ، سيستطيع الانتقام لنفسه .

لقد عاد إلى طبيعته : عاد إليه الأمل .

بالنسبة لراروس كان الأمر أصعب مع لوسيليا . فمنذ أن لقيها في روما لم ينفرد بها مطلقاً . ولم يقل لها ، لا هو ولا أبوها ، ما الذي كان يبعده عنها باستمرار في هذه الأيام . وهاهي الآن تطلّع على ذلك . فخطيبها يعمل مع قيصر . هو المؤتَمن الوحيد لدى حاكم العالم .

ولكن ، ألا يستطيع أن يذهب معها لمدة ربع ساعة إلى الحانة في زقاق النحاسين ؟ ألا يستطيع قيصر أن يدبر أموره لوحده مدة ربع ساعة ؟

صحبها راروس إلى زقاق النحاسين . لكنهما لم يدخلا الحانة . فقد لاحظ راروس فجأة أنه مراقب من جديد : شخصان غامضان يتعقبانه منذ الصباح ، أينما

ذهب . وهكذا افترق الحبيبان عن بعضهما أمام الفندق . فذهبت لوسيليا إلى عند أمها تخبرها متهللة كم هو خطيبها قريب من قيصر العظيم ، بينما حاول راروس دون جدوى أن يتملص من ملاحقيه .

وقبل منتصف الليل سوف يعلم ، ماذا يعني أن يكون المرء قريباً من الجبابرة .

عند الساعة الحادية عشرة كان راروس ثانية في ساحة القصر . فصيلة من الزنوج كانت تحرس القصر . أغلب الجنود سكارى .

في غرفته الصغيرة خلف المكتب أخذ راروس يبحث بشكل محموم عن ذلك الملف الذي كان المصرفي الأسباني قبل يوم قد حمّله إياه إلى قيصر . قيصر لم يقرأه وقتذاك . في هذا الملف توجد اسماء المتآمرين . لقد وجدهم جميعاً : بروتوس ، كاسيوس ، جميع أولاد الذوات[8] في روما ، وكثيرون منهم كان يعتبرهم قيصر أصدقاءه . على قيصر أن يقرأه من كل بد ، هذه الليلة . وهذا ما سوف يجعله يقصد عربة تيرنتيوس سكابر .

حمل الملف ومضى . الممرات كانت نصف معتمة ، من الأجنحة الأخرى كان ينبعث غناء السكارى . على مدخل الردهة وقف للحراسة اثنان من الزنوج العمالقة . لم يريدا السماح له بالمرور . ولم يفهما ما يقوله لهما .

حاول باتجاه آخر ، فالقصر ضخم . لكن هنا أيضاً الحرس من الزنوج ولا يمكن المرور . حاول إلى الممرات والجنينات التي يمكن الوصول اليها من خلال تسلق النوافذ ، لكن كل شيء كان مسدوداً في وجهه .

عاد منهكاً إلى غرفته ، وقد بدا له أنه قد رأى ظهر رجل في الممر بعيداً تحت . لقد كان أحد ملاحقيه . تملكه الخوف ، فاندفع إلى داخل غرفته وأوصد الباب . لم

---

8) انظر الحاشية السابقة .

يشعل النور ونظر من النافذة إلى الفناء . كان هناك أمام نافذته ملاحقه الثاني .تصبب منه عرق بارد .

جلس طويلاً في الغرفة المظلمة ، متنصّتاً . مرة دُقّ الباب . لم يفتح راروس . فلم ير الطارق الذي انصرف بعد قليل مِّن الانتظار أمام بابه : كان قيصر .

منذ منتصف الليل أوقف تيرنتيوس سكابر عربته أمام البوابة الجنوبية . لم يخبر المحارب القديم أسرته سوى بأن عليه أن يقوم بسفرة خارج روما لمدة يومين . على لوسيليا وأمها أن يذهبا إلى راروس الذي سوف يرعاهما .

غير أنه في تلك الليلة لم يأت أحد إلى البوابة الجنوبية كي يستقل عربة الثيران .

في الصباح الباكر من 15 آذار أُعلم الديكتاتور بأن سكرتيره قد اغتيل ليلاً في القصر . قائمة أسماء المتآمرين اختفت . وقيصر سوف يلتقي قبل الظهر بحاملي تلك الأسماء في مجلس الشيوخ وسوف يسقط تحت خناجرهم .

عربة ثيران يقودها جندي قديم وفلاح مُهجّر كانت تكرج عائدة إلى فندق في الضاحية ،حيث كانت أسرة صغيرة تنتظر ،أسرة يدين لها قيصر العظيم بثلاثمائة درهم . . . .

* * *

معطف الهرطوق

جيوردانو برونو(*) ، النولاني الأصل ، الذي أمرت محكمة التفتيش في عام 1600 بإحراقه على كومة الحطب بتهمة الهرطقة ، يعتبر على العموم رجلاً عظيماً ، ليس فقط بسبب نظرياته الجريئة ، التي ثبتت صحتها منذ ذلك الوقت ، عن حركات الأفلاك ، بل أيضاً بسبب موقفه الشجاع تجاه محكمة التفتيش التي قال لها : « إنكم تنطقون حكمكم ضدي ، وخوفكم ربما كان اشد من خوفي وأنا أسمعه » . لو قرأ المرء كتاباته ، وألقى فوق ذلك نظرة على الاخباريات عن موقفه العلني ، فانه لن يرى فعلاً ما ينتقص من كونه رجلاً عظيماً . ومع ذلك فثمة قصة قد تزيد أكثر من تقديرنا له .

إنها قصة معطفه .

---

*) جيوردانو برونو : فيلسوف ايطالي نهضوي ، ولد عام 1548 في نولا وتوفي في 17 / 2 / 1600 في روما . كان في البدء دومينيكانياً ، لكنه ترك بعدئذ هذه الأخوية وأصبح خصماً للمعتقدات السائدة . بسبب اتهامه بالهرطقة ، كان مضطراً لأن يعيش حياة التجوال في اوروبا (فرنسا ، انكلترا ، ألمانيا ، بوهيميا ، سويسرا) . كان من المادويين أصحاب مذهب وحدة الوجود ، متأثراً بكوبر نيكوس وفون كووس . ـ ملاحظة من المترجم .

قبلئذ علينا أن نعرف كيف وقع في أيدي محكمة التفتيش .

ثري من البندقية ، اسمه موسينيغو ، دعا العلاّمة إلى منزله كي يعطيه دروساً في الفيزياء وفن التذكّر . استضافه مدة شهرين ، ونال مقابل ذلك الدروس المتفق عليها . ولكن ، بدلاً من أن يتعلم السحر الأسود ، الذي كان يرجوه ،تلقى تعليماً في الفيزياء فحسب . هكذا ندم على المصاريف التي تحملها من هذا الضيف . وكان قد أنذره عدة مرات بجدية بأن يمده آخر الأمر بالمعارف السرية والمدرّة التي لا بد أن رجلاً بهذه الشهرة يملكها . وعندما لم يفده ذلك ، وشى به خطياًإلى محكمة التفتيش . كتب لهم ، إن هذا الانسان السيء والجاحد تكلم في حضرته بالسوء عن المسيح ، وقال عن الرهبان بأنهم حمير ويجهّلون الشعب ، وزعم فوق ذلك أنه يوجد ،خلافاً لما جاء في الكتاب المقدس ، ليس فقط شمساً واحدة ، بل عدد لا يُحصى من الشموس الخ الخ . ولذلك فانه ، هو موسينيغو ، قد احتجزه في حجرة تحت السطح ، والرجاء ، أن ترسلوا بأسرع ما يمكن من يحضره إليكم .

وقد جاء الموظفون فعلاً في منتصف ليل الأحد إلى الاثنين ، وجلبوا العلاّمة إلى سجن محكمة التفتيش . حدث هذا يوم الاثنين في 25 أيار 1592 ، الساعة 3 باكراً ، ومنذ هذا اليوم إلى اليوم الذي اعتلى فيه كومة الحطب ، وذلك في 17 شباط 1600 ، لم يخرج العلاّمة النولاني من السجون .

خلال الثماني سنوات التي استغرقتها هذه القضية الرهيبة ، كان يناضل دون كلل أو ملل في سبيل حياته ، ولعل النضال الذي خاضه في السنة الأولى في البندقية ضد تسليمه لروما كان هو الأكثر بأساً .

في ذلك الوقت حدثت قصة المعطف .

ففي شتاء 1592 ، وكان ما يزال يسكن في أحد الفنادق ، فصّل عند خياط يُدعى جبرائيل شونتو معطفاً سميكاً . وعندما جرى اعتقاله ، لم يكن قد دفع ثمنه بعد .

عندما سمع الخياط بالاعتقال ، هرع إلى منزل السيد موسينيغو في منطقة القديس صموئيل ليقدم اليه ورقة الحساب . لكنه جاء متأخراً . أحد خدم السيد موسينيغو طرده : « لقد دفعنا ما فيه الكفاية لهذا المحتال » . هكذا صرخ في وجهه وهو على العتبة ، بحيث لفت نظر بعض المارة ، وقال له : « لعلك تذهب إلى محكمة الإدارة الكنسية وتقول هناك إن لك أية علاقة مع هذا الهرطوق » .

وقف الخياط مرعوباً في الشارع . جمع من أولاد الأزقة استمع إلى كل ما جرى . واحد منهم ، وهو بلعوص رث الثياب ، وجهه مليء بالبثور ، رماه بحجر . وخرجت من أحد الأبواب امرأة في ملبس زري وكالت له صفعة . إزاء ذلك شعر شونتو ، وهو الرجل العجوز ، بأنه من الخطورة أن يكون للمرء « أية علاقة مع هذا الهرطوق » . وهكذا انصرف ، وهو يتلفت بوجل ، وانعطف عند أول زاوية للشارع ، وذهب إلى بيته سالكاً أطول طريق . ولم يحدث زوجته بأي شيء عن مصيبته ، فبقيت هي طوال اسبوع مستغربة حالة الانقباض التي وقع فيها .

غير أنها في أول حزيران اكتشفت لدى تصفية الفواتير ، أن ثمة معطفاً لم تُسدد قيمته ، من قبل رجل اسمه على كل شفة ، فقد كان النولاني حديث المدينة . كانت تسري أفظع الشائعات عن سوئه . فهو لم يكتف بتمريغ الزواج الشرعي بالوحل ، في الكتب كما في الأحاديث ، بل حتى أنه رمى المسيح نفسه بالشعوذة ، وقال أشياء جنونية عن الشمس . فليس عجباً إذن أن لا يدفع ثمن معطفه . لم يكن لدى المرأة الطيبة أقل رغبة في أن تتحمل هذه الخسارة . وبعد شجار عنيف مع زوجها ذهبت المرأة ذات السبعين عاماً بثياب الأحد إلى بناء الإدارة الكنسية وطالبت بوجه عابس بالاثنين وثلاثين سكودياً التي يدين لها بها الهرطوق المعتقل .

سجل الموظف الذي كلمته مطلبها ووعدها بأن يتقّصى الأمر .

بعد فترة تلقى شونتو استدعاء للحضور ،فحضر إلى البناء المخيف مرتجفاً مرتعد

الفرائص . وقد أثار عجبه أنه لم يخضع للاستجواب ، بل جرى إبلاغه بأنه لدى تسوية الأمور المالية للمعتقل سوف يؤخذ مطلبه بعين الاعتبار . على أن الموظف ألمح اليه بأنه لن يتأتى عن ذلك الكثير .

كان الرجل العجوز في غاية السعادة بأنه خرج من ذلك سالماً ، بحيث أنه انحنى بخضوع شاكراً . لكن زوجته لم تكن راضية . فلتغطية الخسارة لم يكن يكفي أن يتخلى زوجها عن كأسه المسائية وأن يبقى حتى الليل وهو يخيط الملابس . هناك ديون لتاجر القماش ، ويجب أن تُدفع . وأخذت تصرخ في المطبخ وفي الفناء ، بأنه من العار أن يلقى القبض على مجرم قبل أن يسدد ديونه . وهي ستذهب إن لزم الأمر ، إلى الحبر الأعظم في روما ، كي تحصل على الاثنين وثلاثين سكودياً ،حقها . وصرخت : « لن يحتاج إلى معطف على كومة الحطب » .

قصّت على الخوري الذي تعترف عنده ما حدث لها . فنصحها بأن تطالب بأن يُعطى لها المعطف على الأقل . وإذ رأت في ذلك اعترافاً بحقها من قبل سلطة كنسية ، أعلنت بأنها لا تقبل بأي حال بالمعطف ، إذ أنه لا بد قد جرى استعماله ، بالإضافة إلى أنه قد صنع حسب المقاس . يجب أن تحصل على النقود . بانفعالها ارتفع صوتها قليلاً ، فألقى بها الكاهن خارجاً . وهذا ما أعادها إلى صوابها بعض الشيء ، فبقيت بضعة أسابيع هادئة . ومرت فترة لم يُسمع فيها من بناء محكمة التفتيش أي شيء حول قضية الهرطوق المعتقل . غير أنه كانت ثمة شوشرات في كل مكان ، بأن الاستجوابات استدعت ممارسات مخزية إلى أبعد حد . كانت العجوز تتشمّم هذه الجقجقات بنهم . وكان يعذّبها بأن تسمع أن قضية الهرطوق تسير بشكل سيء . عندئذ لن يطلق سراحه أبداً ، ولن يستطيع دفع ديونه . فلم تعد تستطيع النوم . وفي آب ، وقد أتلف القيظ أعصابها ، ابتدأت في المحلات ، حيث كانت تتسوّق ، وأمام الزبائن الذين كانوا يأتون لتجريب ملابسهم ، بعرض ظلامتها بلسان مهذار . وألمحت إلى أن الآباء الروحيين يقترفون خطيئة ، عندما يفرغون بهذه اللامبالاة من مطاليب محقة لحرفي صغير .

فالضرائب أصبحت مرهقة ، والخبز قد عاد سعره مؤخراً إلى الارتفاع .

في أحد الصباحات أحضرها موظف إلى بناء الإدارة الكنسية ، وهناك نبهوها بالحاح إلى ضرورة أن تتخلى عن ثرثرتها القبيحة . سألوها ، ما إذا كانت لا تخجل من كونها بسبب بضع سكوديات تلوك بلسانها قضية روحية خطيرة . وقد أفهموها بأن لديهم تجاه أمثالها من البشر الوسائل الملائمة .

آتى هذا التحذير ثماره لبعض الوقت ، وإن كان تفكيرها بقول ذلك الأخ المنتفخ السمنة « بسبب بضع سكوديات » يجعل في كل مرة حمرة الغضب تصعد إلى وجهها . لكن في أيلول سرى خبر بأن كبير المفتشين في روما طالب بتوريد النولاني . في سيغنوريا كانت تجري مداولات حول ذلك .

ناقش الأهالي بحمية طلب التوريد هذا ، وكان المزاج عموماً ضد ذلك . فالأصناف الحرفية لم تكن تريد أن تعطي المحاكم الرومانية سلطة عليها .

استشاطت العجوز غضباً : أحقاً يريدون الآن ترك الهرطوق يذهب إلى روما ،دون أن يكون قد سدد ديونه ؟! إنها الذروة . وما أن سمعت بهذا الخبر العجيب ،حتى هرعت ، دون أن تعطي نفسها الوقت لكي تلبس ثوباً أفضل ، إلى بناء الإدارة الكنسية .

استقبلها هذه المرة موظف ذو مرتبة أعلى ، والغريب أنه كان متجاوباً معها أكثر من الموظفين السابقين . كان في عمرها تقريباً ، واستمع بهدوء وانتباه إلى شكواها . وعندما أنهت كلامها سألها بعد استراحة قصيرة ، ما إذا كانت ترغب في التحدث إلى برونو .

وافقت فوراً . فحددوا لها موعداً في اليوم التالي .

قبل ظهر اليوم الموعود دخل عليها في غرفة ضئيلة ذات نوافذ مشبوكة بالقضبان

الحديدية رجل صغير نحيل بلحية خفيفة سوداء ، وسألها بتهذيب عن مرادها . كان قد رآته سابقاً عند أخذ المقاس وحفظت بذاكرتها كل هذا الوقت صورة وجهه ، لكنها الآن لم تتعرف اليه مباشرة . لا بد أن مضايقات الاستجوابات قد غيّرته .

قالت بعجلة : « المعطف . أنت لم تدفع ثمنه » .

نظر اليها بضع ثوان متعجباً . ثم تذكر ، وبصوت واهن سألها : « بكم أنا مدين لك ؟ » .

قالت له : « باثنين وثلاثين سكودياً . قد استلمت ورقة الحساب » .

استدار نحو الموظف البدين الذي كان يشرف على المقابلة وسأله ، ما إذا كان يعلم ، كم من النقود سلّم مع متاعه في بناء الإدارة الكنسية . لم يكن الرجل يعلم شيئاً عن ذلك ، لكنه وعد بالتأكد منه .

بعدئذ التفت السجين إلى العجوز وسألها : كيف حال زوجك ؟ . وكأن القضية قد سارت في مجراها الآن ، بحيث يمكن إقامة علاقات عادية ، واعتبار الأمر زيارة اعتيادية .

تمتمت العجوز وقد صُدمت بلطافة الرجل الصغير ، بأنه في خير ، حتى أنها أضافت شيئاً عن معاناته من الروماتيزم .

انتظرت يومين بعد ذلك ، حيث بدا لها من اللائق أن تعطي السيد وقتاً من أجل القيام باستعلاماته ، ثم ذهبت ثانية إلى بناء الإدارة الكنسية .

بالفعل ، فقد سُمح لها أن تتحدث مرة أخرى إليه . وكان عليها أن تنتظر في الغرفة الضئيلة ذات النوافذ المشبوكة بالقضبان الحديدية أكثر من ساعة ، لأنه كان وقتئذ في الاستجواب .

قدم اليها ، وكان منهكاً . ولما لم تكن هناك كرسي ، فقد استند قليلاً إلى الحائط . لكنه دخل فوراً في الموضوع .

قال لها بصوت ضعيف ، إنه للأسف ليس في وضع يستطيع فيه أن يدفع ثمن المعطف . فبين متاعه لم تتواجد أية نقود . ومع ذلك لا داع لأن تفقد الأمل . لقد فكر في الأمر وتذكر أن ما زال له نقود عند الرجل الذي طبع له كتباً في مدينة فرانكفورت . سوف يكتب له إذا سُمح له . وسوف يسعى غداً من أجل الحصول على الأذن لذلك . لقد بدا له اليوم في الاستجواب ، بأن الأمور ليست على ما يرام . لذلك لم يرد أن يعرض طلبه ويفسد ربما كل شيء .

كانت العجوز تنظر اليه بعين ثاقبة وهو يتكلم . هي خبيرة بتحجّجات واستمهالات المديونين المقصّرين . فهم لا يُعيرون التزاماتهم أدنى اهتمام ، وإذا ما نحرهم المرء ، يتظاهرون بأنهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها في سبيل ذلك .

سألته بجفاء :« لأي شيء تحتاج المعطف ، إن لم يكن لديك المال لدفع ثمنه ؟ » .

هز المعتقل برأسه ، دلالة على أنه قد فهم ما ترمي إليه . وأجابها : « كنت على الدوام أكسب المال ، من الكتب ومن الدروس . ففكرت أنني سأكسب الآن أيضاً . واعتقدت بأنني سأحتاج إلى المعطف ، لأنني اعتمدت بأنني سأبقى أعيش حراً طليقاً » .

قال هذا دون أية مرارة ، من الواضح كي يرد عليها بالمثل .

قاسته العجوز بنظرها ثانية من فوق لتحت ، وهي مليئة بالغضب ، إنما بشعور أنها ليست نداً له . وبدون أن تتفوّه بكلمة ، استدارت إلى الخلف وغادرت الغرفة .

« من ذا الذي سيبقى يرسل مالاً لرجل يخضع لمحكمة التفتيش ؟ » . أسرّت العجوز بذلك إلى زوجها حانقة ، عندما كانا في ذلك المساء مستلقين على الفراش . أما هو فقد أصبح الآن مطمئناً من موقف السلطة الروحية تجاهه ، لكنه مع ذلك استنكر محاولات زوجته الدؤوبة كي تحصّل النقود . همهم قائلاً : « الآن لديه أشياء أخرى يفكر بها » . فلم تقل هي شيئاً من بعد .

مضت الشهور التالية دون أن يحدث أي جديد في هذه القضية الثقيلة . أوائل

كانون الثاني سرى خبر بأن سيغنوريا تنوي الاستجابة لرغبة البابا وتوريد الهرطوق . وبعدئذ جاء آل شونتو استدعاء للحضور إلى بناء الإدارة الكنسية .

لم تكن ساعة الحضور محددة ، فتوجهت السيدة شونتو إلى هناك بعد الظهر . فكان مجيئها في وقت غير مناسب . إذ أن السجين كان ينتظر زيارة من مندوب الجمهورية الذي كان مطالباً من قبل سيغنوريا بأن يعد مطالعة حول مسألة التوريد . استقبلها الموظف الكبير ، الذي سبق أن رتب لها أول لقاء مع النولاني . قال لها هذا الشيخ ، إن السجين يرغب بأن يتحدث إليها ، لكن عليها أن تقدّر ، ما إذا كانت قد اختارت الوقت المناسب ، نظراً لأن السجين مقبل مباشرة على مؤتمر في غاية الأهمية بالنسبة له .

قالت باقتضاب ، ما عليهم سوى أن يسألوه .

فذهب أحد الموظفين وعاد مع السجين . وجرت المقابلة بوجود الموظف الكبير .

قبل أن يستطيع النولاني ان يتكلم بشيء ، ، وكان قد ابتسم لها عند الباب ، قذفته العجوز بقولها : « لماذا تسلك هذا السلوك ، إذا كنت تريد أن تعيش حراً طليقاً ؟ » .

للحظة بدا الرجل الصغير مندهشاً . فخلال هذه الربع سنة أجاب على أسئلة كثيرة جداً ، وما كانت لتبقى في ذاكرته خاتمة مقابلته الأخيرة مع زوجة الخياط . قال أخيراً : « لم تردني نقود . كتبت مرتين من أجل ذلك ، لكن لم يأت شيء . فكرت في نفسي ، ماذا لو استرجعتم المعطف » . قالت له بازدراء : « كنت أعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد . وهو مفصّل على المقاس ، وصغير بالنسبة لأكثر الرجال » .

نظر النولاني بألم إلى المرأة العجوز وقال : « هذا ما لم أفكر به » . ثم التفت إلى الكاهن : « أليس من الممكن بيع كل متاعي واعطاء النقود لهؤلاء الناس ؟ » .

تدخل الموظف الذي أحضره ، وهو البدين ، في الحديث قائلاً : « لن يكون هذا ممكناً . وسوف يعترض عليه السيد موسينيغو .فقد عشت طويلاً على حسابه » .

رد النولاني متعباً : « هو الذي دعاني » .

فرفع الشيخ يده :« هذا موضوع آخر .أظن أنه من الضروري ارجاع المعطف» .

قالت المرأة العجوز معاندة : « وماذا سنفعل به ؟ » .

احمر وجه الشيخ قليلاً . وقال بتؤدة : « أيتها السيدة العزيزة ، قليل من المسامحة المسيحية سيكون لائقاً بك . فالمتهم مقبل على مقابلة قد تعني له الحياة أو الموت . فلا يمكنك أن تطالبيه بأن يبذل كل هذا الاهتمام بمعطفك » .

نظرت اليه العجوز مرتبكة . فقد تذكرت فجأة أين هي الآن . ورازت في نفسها ، ما إذا كان عليها أن تنصرف . إذ ذاك سمعت السجين من ورائها يقول بصوت خافت : « إنها تستطيع ، برأيي ، أن تطالب بذلك » .

وعندما التفتت اليه أضاف : « عليك أن تعذريني عن كل ذلك . ولا تفكري بأي حال بأنني غير مبال بخسارتك . سوف أكتب معروضاً بهذا الشأن » .

بإيماءة من الشيخ غادر البدين الغرفة .ثم عاد بعد قليل وبسط ذراعيه قائلاً :

« المعطف لم يُسلّم أصلاً . لا بد أن موسينيغو قد احتفظ به » .

ارتاع النولاني بشكل ملحوظ ثم قال بحزم : « هذا ليس حقاً .سوف أشكوه» .

هز الشيخ رأسه : « الأفضل لو أشغلت نفسك بالحديث الذي ستفضي به بعد دقائق . لا يمكنني أن اسمح أكثر من ذلك بشجار حول بضع سكوديات » .

صعد الدم إلى رأس العجوز . كانت صامتة أثناء حديث النولاني وتنظر مبوزمة في زاوية من الغرفة . أما الآن فقد نفذ صبرها ثانية .

فصرخت : « بضع سكوديات ! هذا دخل شهر كامل ! سهل عليك أن تعظ بالمسامحة فأنت لن تخسر شيئاً » .

في هذه اللحظة دلف من الباب راهب طويل القامة وقال بصوت نصف عال وهو ينظر مستغرباً إلى المرأة المجعجعة : « لقد وصل المندوب » .

أمسك البدين بالنولاني من كمّه وقاده إلى الخارج . ونظر السجين من فوق كتفه الضيقة إلى المرأة ، وبقي ينظر اليها إلى أن تخطى العتبة . كان وجهه النحيف شديد الشحوب .

نزلت العجوز مشوشة الفكر على الدرج الحجري للبناء . لم تدر كيف تحكم على الرجل . على كل فعل استطاعته .

بعد اسبوع ، عندما أحضر البدين المعطف ، لم تكن هي في المشغل . لكنها استرقت السمع عند الباب ، فسمعت الموظف يقول : « لقد بقي فعلاً كامل الأيام الأخيرة مهتماً بالمعطف . أعدّ معروضين ، في الزمن ما بين الاستجوابات والمقابلات مع سلطة المدينة ، وعدة مرات طلب مقابلة من أجل هذه القضية مع السفير البابوي . وقد حقق ما يريد . فتوجب على موسينيغو أن يسلّم المعطف . علماً أنه في أمسّ الحاجة اليه ، إذ سيجري توريده ويجب أن يغادر خلال هذا الاسبوع إلى روما » .

وهذا ما حدث ، وكان ذلك في نهاية كانون الثاني .

* * *

الاختبار

انتهت الحياة الوظيفية لفرانسيس بيكون(*)العظيم كأمثولة رخيصة للقول الخادع : « مال الحرام لا يدوم » . فقد ثبتت إدانته بالرشوة وهو في منصب كبير قضاة المملكة . ورمي به في السجن . وتعد سنوات تسنمه لمستشارية اللوردات ، بما حفلت من أحكام بترخيص احتكارات ضارة وأوامر باعتقالات غير قانونية وفرض أحكام جائرة ، من أكثر سنوات التاريخ الانكليزي ظلاماً وعاراً . بعد انكشافه واعترافه كان لشهرته العالمية كانسانوي وفيلسوف أثر في انتشار أخبار جرائمه حتى خارج حدود المملكة .

كان قد أصبح شيخاً ، عندما سُمح له بمغادرة السجن والعودة إلى عزبته . وهن

*)Francis Bacon(فيلسوف ورجل دولة وحقوقي انكليزي ، ولد عام 1561 وتوفي عام 1626 في لندن . وقد بدأ هذا التحول الذي يتحدث عنه برشت في عام 1621 . اعتبره ماركس الأب الحقيقي للمادية الانكليزية ولكافة العلوم التجريبية الحديثة . سياسياً كان من الأنصار المتشددين للحكم المطلق ، ودينياً تبنى مذهب الحقيقة المزدوجة ، تجنباً للاصطدام مع الكنيسة . انظر موسوعة ماير الجديدة ، المجلد الأول ، لايبزيغ 1972 ، ص 700 - ملاحظة من المترجم .

جسمه من الجهد الذي بذله للايقاع بالآخرين ، ومن المعاناة التي ألحقها به الآخرون عندما أوقعوا به . إلا أنه ما كاد يصل منزله ، حتى انكبّ بهمّة على دراسة العلوم الطبيعية . لقد فشل في السيطرة على الناس ، والآن يكرس ما تبقّى لديه من قوة للكشف عن أفضل الطرق لسيطرة البشرية على قوى الطبيعة .

وقد ساقته أبحاثه ، التي كرّسها للأشياء المفيدة ، دائماً من جديد خارج حجرة الدراسة إلى الحقول والبساتين واسطبلات العزبة . فيتحدث الساعات الطوال مع البستانيين حول امكانيات تطعيم أشجار التفاح ، أو يعطي الخادمات تعليمات عن كيفية قياس ما يُحلب من كل بقرة . إذ ذاك لفت نظره صبي الاسطبل . كان ثمة حصان أُصيب بمرض ، فجعل الصبي يقدم للفيلسوف كل يوم تقريرين عن حالة الحصان . وذلك بدأب وقوة ملاحظة أبهجتا الشيخ .

غير أنه في أحد المساءات ، عندما جاء إلى الاسطبل ، رأى امرأة عجوزاً تقف إلى جانب الصبي وسمعها تقول له : « هو رجل سيء ، فاحذره . ولو كان سيداً كبيراً ويملك نقوداً كالتبن ، فهو يبقى سيئاً . هو معيلك ، إذن أنجز عملك بدقة ، لكن اعلم دائماً أنه سيء » . لم يسمع الفيلسوف جواب الصبي ، إذ استدار وعاد إلى المنزل . لكنه في اليوم التالي لم يلحظ عند الصبي أي تغيّر تجاهه .

عندما عادت للحصان صحته ، سمح للصبي بمرافقته في كثير من مشاويره ، وعهد اليه ببعض المهمات الصغيرة . ثم شيئاً فشيئاً اعتاد أن يتحدث معه حول بعض الاختبارات . إذ ذاك لم يختر بأي حال عبارات يعتقد الكبار عموماً أنها مناسبة لادراك الأطفال ، بل كان يتحدث اليه كما يفعل مع ذوي العلم . كان طوال حياته يهتم بصحبة أصحاب العقول الكبيرة ، ونادراً ما كانوا يفهمونه ،ليس لأنه غير واضح ، بل لأنه كان واضحاً أكثر من المعتاد . لذلك لم يلق بالاً لما يمكن أن يسبّبه للصبي من

جهد ، إنما كان يصحّح له بأناة ، إذا ما حاول الصبي بدوره أن يستخدم العبارات الأجنبية .

كان التمرين الرئيسي للصبي يقوم على وصف الأشياء التي يراها والعمليات التي يعايشها . وقد بيّن له الفيلسوف ، كم يوجد منها عبارات وكم منها ضروري كي يستطيع المرء وصف الوضع لشيء من الأشياء بالشكل الذي يمكنه من إدراكه نصف إدراك ، وخاصة أن يتمكن من معالجته بحسب هذا الوصف . كما بيّن له أنه توجد عبارات يُفضّل أن لا يستخدمها المرء ، لأنها بالأساس لا تقول شيئاً ، مثال ذلك : « جيد » ، « سيء » ، « جميل » وهلم جرا .

وسرعان ما أدرك الصبي ، أنه ليس ثمة كثير معنى في أن يصف الجعل بأنه « بشع » .حتى وصفه بـ « السريع » ليس كافياً ، بل على المرء أن يحدد ، كم تبلغ سرعة تحركه ، بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى من حجمه ، وما الذي يمكّنه من هذه السرعة . على المرء أن يضعه على سطح مائل وأملس ، وأن يحدث ضجيجاً يدفعه إلى الهرب ، أو أن يضع له طعماً صغيراً يمكن أن يتوجه إليه . فإذا انشغل المرء به مدة كافية ، فانه « سرعان » ما يفقد بشاعته . في إحدى المرات كان على الصبي أن يصف قطعة خبز كان يمسكها بيده ، عندما صادفه الفيلسوف . قال له : « هنا تستطيع وأنت مطمئن أن تستخدم كلمة « جيد » ، لأن الخبز مصنوع من أجل أن يأكله الانسان ، ويمكن أن يكون بالنسبة له جيداً أو سيئاً . أما تجاه الأشياء الأكبر ، التي خلقتها الطبيعة ، والتي لم تخلق لغايات محددة سلفاً ، بصورة خاصة ليس كي تستخدم من قبل البشر ، فانه من الحماقة أن يكتفي المرء بتلك العبارات » . هنا فكر الصبي في كلمات جدّته عن سيده اللورد .

وحيث أن ما يجب إدراكه كان يصبّ دائماً في [illegible] محسوسة تماماً ، فقد تقدم الصبي بخطوات سريعة في فهم أن الحصان تعافى من خلال الوسائل المستخدمة ،

وأن الشجرة تهلك بهذه الوسائل . وأدرك أيضاً ، أنه يجب أن يبقى دائماً شيء من الشك المنطقي ، في أن تكون الطرق المستخدمة هي فعلاً السبب في التغيّرات التي رصدها المرء . ولم يستوعب الصبي الأهمية العلمية لطريقة تفكير بيكون العظيم ، إنما حفّزته النفعية الواضحة لكل تلك العمليات .

هكذا كان فهم الصبي للفيلسوف : زمن جديد قد أشرق . البشرية تزيد من معارفها . وكل معرفة تخدم زيادة الرخاء والسعادة الأرضية . يقود ذلك : العلم . فالعلم يدرس الكون ، يدرس كل ما هو على الكرة الأرضية ، من نباتات وحيوانات وتربة ومياه وهواء ، كي يتمكن الانسان من الحصول على منافع أكثر منها . وليس ما يؤمن به المرء هو المهم ، بل ما يعرفه . فقد كان الانسان يؤمن بأكثر من الكثير ، ويعلم أقل من القليل . لذلك على المرء أن يختبر كل شيء ، بيديه ، وأن لا يتحدث إلا بما رأته عيناه وبما يمكن أن يقدم منفعة .

ذلك كان المذهب الجديد الذي انضم اليه الناس أكثر فأكثر ، وهم مستعدون ومتحفزون لأن يقوموا بالأعمال الجديدة . إذ ذاك لعبت الكتب دوراً كبيراً ، رغم أنه وُجد الكثير من الكتب السيئة . وقد كان واضحاً للصبي ، أن عليه أن يندفع نحو الكتب ، إن هو أراد أن يكون من بين الناس الذين يقومون بالأعمال الجديدة .

بالطبع لم يصل الصبي أبداً إلى مكتبة المنزل . كان عليه أن ينتظر سيده اللورد أمام الاسطبلات . في الحالة القصوى أمكنه ، إن مرت أيام ولم يأت الشيخ ، أن يلقاه مرة في الحديقة . غير أن حجرة الدراسة ، التي كان مصباحها يشتعل ليلياً تلك الفترة الطويلة ، كانت تثير فضوله بصورة متزايدة . وكان ثمة سياج في مقابل تلك الحجرة يستطيع منها الصبي أن يلقي نظرة على رفوف الكتب .

أخيراً قرر أن يتعلم القراءة . بالطبع لم يكن الأمر سهلاً . فعندما ذهب برغبته هذه إلى الواعظ ، نظر اليه هذا نظرته إلى عنكبوت على مائدة الفطور . سأله متأففاً :

« أتريد أن تتلو الأنجيل على مسامع البقرات ؟ » . وقد كان الصبي سعيداً أنه غادر دون لطمة على بوزه . كان عليه أن يختار طريقاً أخرى .

في موهف(*) كنيسة القرية كان يوجد كتاب الصلاة . وكان المرء يستطيع الوصول اليه بأن يتبرع بشدّ حبل جرس الكنيسة . فإذا أمكن معرفة الموضع الذي يترنم به الواعظ في الصلاة ، فلا بدّ أن يكون ممكناً اكتشاف صلة بين الألفاظ والحروف . على أية حال بدأ الصبي يحفظ عن ظهر غيب الكلمات اللاتينية التي ينشدها الواعظ في الصلاة ، بعضها على الأقل . بالطبع كان الواعظ ينطق الكلمات بشكل غير واضح ، وكثيراً ما كان لا يقرأ الصلاة . مع ذلك أصبح الصبي بعد زمن قادراً على أن يقلد الواعظ في ترنيم بضع بدايات صلواتية . في إحدى هذه التمارين فاجأه معلم الاسطبل وراء المخزن وأشبعه ضرباً ، لأنه ظنه يتمسخر الواعظ . وهكذا أدركته الصفعات التي فاتته قبلئذ من الواعظ .

لم يكن الصبي قد تمكّن بعد من أن يحدد في كتاب الصلاة المواضع التي ينشدها الواعظ ، عندما طرأت كارثة كبيرة هددت بتوقف مساعيه لتعلّم القراءة : لقد أصيب سيده اللورد بمرض مميت .

كانت صحته قد توعكت طيلة الخريف ، ولم يكن قد تعافى في الشتاء ، عندما قام بسفرة على زلاجة مكشوفة إلى أرض له تبعد عدة أميال . وقتها سمح للصبي بأن يرافقه ، فوقف هذا في الخلف على حافة الزلاجة إلى جانب مقعد الحوذي . كانت الزيارة قد انتهت ، وتقدم الشيخ يرافقه المضيف ليركب الزلاجة ، وإذ به يرى عصفوراً دورياً ملقى على الطريق وهو متجمّد . توقف في مكانه وقلب العصفور بعصاه . وسمعه الصبي الذي كان يهكع وراءه بكيس الماء الدافىء يسأل المضيف : ـ « منذ متى

---

*) غرفة المقدسات وملابس الكهنة في كنيسة .

تظنه راقداًهنا ؟ » . فكان الجواب : « من ساعة إلى أسبوع أو أكثر » . وتابع الشيخ طريقه متفكراً ، وودع مضيفه توديعة ساهية . وعندما انطلقت الزلاجة قال ملتفتاً نحو الصبي : ما زال اللحم طرياً تماماً ، ياديك .

قطعا مسافة من الطريق ، بسرعة إلى حد ما ؛ فالمساء كان قد أرخى بظلاله على الحقول المغطاة بالثلوج وأخذ البرد يزداد بسرعة . وهكذا حدث ، عند المنعطف نحو بوابة القصر ، أن دُهست دجاجة هاربة من الزريبة . كان الشيخ يراقب جهود الحوذي لتفادي الدجاجة المرفرفة ، وعندما أخفقت المناورة ، أمر بالتوقف ، وانتزع نفسه من بين الأغطية والجلود ونزل عن الزلاجة . ورجع ـ رغم تحذيرات الحوذي من البرودة ـ مستنداً إلى ذراع الصبي إلى حيث ارتمت الدجاجة . كانت ميتة .

أوعز الشيخ للصبي بأن يشيل الدجاجة ، وقال له آمراً :«انتزع منها الأحشاء ! » . فسأل الحوذي ،وهو يتأمل سيده كيف يقف واهناً في مهبّ الريح الباردة : « ألا يمكن القيام بذلك في المطبخ ؟ » . أجاب : « لا ، الأفضل هنا . بالتأكيد لدى ديك سكين ، ونحن بحاجة إلى الثلج » . فنفذ الصبي بما أُمر به . أما الشيخ ، الذي يبدو أنه نسي المرض والبرد ،فقد قرفص وتناول باجهاد ملء يده ثلجاً . وبعناية حشا جوف الدجاجة بالثلج .

أدرك الصبي المقصود ، فأخذ يشيل الثلج ويناوله لأستاذه كي تمتلىء الدجاجة تماما .« بذلك يجب أن تبقى لأسابيع غير فاسدة . ضعوها على بلاطات باردة في القبو !» قالها الشيخ بحيوية ، وعاد ماشياً إلى الباب ، فقطع المسافة القصيرة منهكاً بعض الشيء ، وقد استند بتثاقل على الصبي الذي حمل الدجاجة المحشوة بالثلج تحت ابطه . وعندما دخل البهو ،اهتزّ من الصقيع . وفي صباح اليوم التالي أصيب بحمّى شديدة .

أخذ الصبي يحوص مهموماً يتنشق حيثما كان أي خبر عن حالة أستاذه . لم يعرف

سوى القليل ، بينما كانت الحياة في القصر تتابع سيرها كالمعتاد . إنما في اليوم الثالث حدث انعطاف . فقد طلبوه إلى غرفة العمل .

كان الشيخ متمدداً على لوح خشب ضيق ، يعلوه الكثير من الأغطية ، في حين كانت النوافذ مفتوحة ، بحيث كان الجو بارداً . بالرغم من ذلك بدا المريض مثل الجمرة . وبصوت متهدج استعلم عن حالة الدجاجة المحشوّة بالثلج . أعلمه الصبي أنها تبدو كما كانت ، غير فاسدة . فقال الشيخ مغتبطاً : « هذا جيد . عد لي بالأخبار بعد يومين ! » . بعد أن غادر الصبي ، أحسّ بالندم لأنه ما حمل الدجاجة معه . وقد بدا له الشيخ أقل مرضاً مما كان الخدم يتناقلون .

كان قد بدل الثلج للدجاجة مرتين في اليوم كي تبقى غير فاسدة ، عندما توجه من جديد إلى غرفة المريض . غير أن معيقات غير اعتيادية اعترضته . فقد قدم أطباء من العاصمة . وطنّ الممر بالأصوات الهامسة ، الآمرة والمطيعة ؛ وفي كل مكان كان ثمة وجوه غريبة . أحد الخدم ، وقد حمل وعاء مغطى بمنديل كبير إلى غرفة المريض ، طرده بفظاظة . مرات عديدة ، طيلة ما قبل الظهر وما بعده ، قام بمحاولات غير مجدية للوصول إلى غرفة المريض . بدا له أن الأطباء الغرباء أرادوا الاقامة الدائمة في القصر ، تخيّلهم طيوراً سوداء هائلة حطت على رجل مريض أصبح بلا مقاومة . عند المساء اختبأ في حجرة على الممر ، حيث كان البرد شديداً . كان يرتجف باستمرار من الصقيع ، لكنه رأى ذلك مناسباً ، لأن الدجاجة (التي يحملها) يجب أن تبقى من كل بدّ باردة .

أثناء طعام العشاء انحسر المد الأسود بعض الشيء ، وتمكن الصبي من الانسلال إلى غرفة المريض . كان المريض وحيداً ، الجميع على مائدة الطعام . إلى جانب السرير الصغير كان هناك مصباح قراءة بمظلة خضراء . كان وجه الشيخ منقبضاً بشكل غريب ويظهر عليه شحوب شمعي . عيناه مغلقتان ، لكن يديه تتحركان بقلق على الغطاء القاسي . في الغرفة كانت الحرارة مرتفعة ، والنوافذ مغلقة .

تقدم الصبي بضع خطوات نحو السرير ، وقال بضع مرات بصوت خافت : « سيدي اللورد » . لم يتلق جواباً . إنما بدا أن المريض لم يكن نائماً ، فشفتاه كانتا تتحركان نحو الأسفل ، كما لو كان يتكلم . قرر أن يثير انتباهه ، لاقتناعه بأهمية تعليماته التالية بخصوص الاختبار . غير أنه أحسّ ، قبل أن يلمس الغطاء ـ وكان قد وضع العلبة التي حمل فيها الدجاجة على إحدى الأرائك ـ ، بأحد قبض عليه من الخلف وسحبه إلى الوراء . كان ثمة رجل سمين بوجه مكفهرّ ينظره كما لو كان مجرماً . وبكل وعي انتزع الصبي نفسه من بين يديه ، وتناول بحركة خاطفة العلبة ، واندغر نحو الباب خارجاً .

في الممر بدا له أن رئيس الخدم قد رآه فيما كان يصعد الدرج . شيء سيء . فكيف سيبرهن له أنه جاء بناء على أمر سيده اللورد ، من أجل إتمام اختبار هام ؟ هذا ، بينما الشيخ واقع تماماً تحت سلطة الأطباء . إلى ذلك تشير النوافذ المغلقة في غرفته . وبالفعل ، رأى خادماً يقطع الحوش متجهاً نحو الاسطبل . لذلك تخلى عن عشائه وانحشر مختبئاً بين الأعلاف ، بعد أن وضع الدجاجة في القبو .

شعوره بأنهم يبحثون عنه ، جعل نزمه قلقاً . وما خرج من مخبئه في صباح اليوم التالي إلا بعد تردد طويل . لكن لا أحد أعاره اهتماماً . رغلة مخيفة كانت تسود في المزرعة . لقد توفي سيده اللورد عند الفجر .

قضى الصبي كل نهاره وهو يحوص ، كما لو أن ضربة على الرأس دوخته . شعر أنه لن يستطيع أبداً التغلب على ألمه بفقدان أستاذه . وعندما نزل بعد العصر إلى القبو بطشت مليء بالثلج ،تحول غمّه لموت أستاذه إلى غم على الاختبار الذي لم ينته ، وسكب الدموع فوق العلبة . إلام سيؤول هذا الاكتشاف العظيم ؟ . وفيما هو متوجه إلى القصر ـ أحسّ بقدميه ثقيلتين لدرجة أنه التفت ينظر مواطن قدميه في الثلج ما إذا كانت أعمق من العادة ـ ، تبين له أن الأطباء اللندنيون لم يغادروا بعد . زلاجاتهم كانت ما تزال هنا .

بالرغم من نفوره من هؤلاء الأطباء قرر الصبي أن يكشف لهم سر الاكتشاف . فهم رجال علم ، ويجب أن يدركوا أهمية الاختبار . فجلب العلبة الصغيرة وفيها الدجاجة المثلجة ووقف وراء البئر ، مختبئاً ، إلى أن مر أحد السادة ، وكان ذا قامة قصيرة لا يزرع في النفس الكثير من الرعب . تقدم إليه مبرزاً العلبة . في البدء لم تخرج الكلمات من حلقه ، إنما بعدئذ تمكن من أن يعبّر له بجمل غير مترابطة عن مراده : « سيدي اللورد وجدها قبل ستة أيام ميتة . حشوناها بالثلج . قال سيدي اللورد أنها يمكن أن تبقى غير فاسدة . انظروا بأنفسكم ! إنها ما تزال غير فاسدة . » .

بحلق قصير القامة متعجباً في العلبة ، ثم سأله : وماذا بعد ؟ » . - « إنها لم تفسد » ، قال له الصبي . - « هكذا ! » ، قال قصير القامة . - « انظروا بأنفسكم !» ، قال الصبي بالحاح . - « إني أنظر » ، قال قصير القامة وهو يهزّ رأسه . وتابع سيره وهو يهزّ الرأس . أتبعه الصبي بنظرة إحباط . لم يستطع أن يفهم هذا القصير القامة . ألم يجلب الشيخ الموت لنفسه بنزوله في البرد وقيامه بالاختبار ؟ بذات يده تناول الثلج من على الارض . هذه حقيقة .

رجع الصبي ببطء إلى باب القبو ، لكنه مكث مدة قصيرة أمامه واقفاً ، ثم تحول عنه بسرعة وركض إلى المطبخ . وجد الطباخ مشغولاً جداً ، فقد كان يعد طعام العشاء للمعزّين القادمين من الجوار . « ماذا تريد بهذا الطير ؟ » ، زمجر الطباخ مزعوجاً ، « إنه متجمّد تماماً ! ». قال الصبي : « هذا لا يهمّ ، سيدي اللورد قال ،هذا لا يهم » بحلق الطباخ فيه لحظة وهو سارح الذهن ، ثم ذهب بوقار نحو الباب وفي يده مقلاة كبيرة ، لا شك كي يرمي بشيء لحق به الصبي بلهفة ومعه العلبة . وسأل الطباخ راجياً : « ألا يمكن أن نجرّب ؟ ». إذ ذاك نفذ صبر الطباخ . فقبض بيديه القويتين على الدجاجة ورمى بها إلى الحوش . وصرخ غاضباً : « أما في رأسك شيء آخر ؟! وسيادة اللورد ميت ! » . بغضب تناول الصبي الدجاجة من على الأرض وانسلّ بها مبتعداً .

كان اليومان التاليان مشغولين بمراسم الدفن . وكثر الطلب على الصبي لربط العربات بالأحصنة وفكها عنها . وكان يكاد أن ينام بعينين مفتوحتين ، عندما كان فوق ذلك يضع في الليل ثلجاً جديداً في العلبة . بدا له كل شيء بلا جدوى . لقد انتهى العصر الحديث .

لكن في اليوم الثالث ، يوم الدفن ، وقد تنشط بالاغتسال وارتدى أفضل ما عنده ، شعر بتحوّل في مزاجه . كان الطقس شتائياً منعشاً جميلاً ، والأجراس تقرع من القرية . امتلأ بأمل جديد ، فذهب الى القبو وتأمّل طويلاً وباهتمام الدجاجة الميتة . لم يستطع أن يرى أي أثر للفساد عليها . وبرفق وضع الحيوان في العلبة وملأها بثلج أبيض نقي ، وحملها تحت ذراعه ويمم وجهه شطر القرية .

دخل الصبي وهو يصفّر مبتهجاً إلى عند جدته في المطبخ الواطىء . كانت هي التي ربّته ، إذ مات أبواه باكراً ، فكانت موضع ثقته . وجعل ، قبل أن يريها ما في العلبة ، يحدثها عن اختبار سيده اللورد ، الذي كانت العجوز للتو قد لبست لحضور دفنه . استمعت إليه بصبر ، ثم قالت : « لكن هذا معروف . فهم يتجمدون في البرودة ويحافظون على أنفسهم زمناً . ما الغريب في الأمر ؟ » . أجابها الصبي وهو يحاول جهده أن يظهر بمظهر اللامبالي : « أظن أنه يمكن أكلها » . ـ « أكل دجاجة ميتة منذ أسبوع ؟ لكنها سامة ! » . ـ « لماذا ؟ لم تتغيّر منذ موتها ؟ ثم إن زلاجة سيدي اللورد هي التي قتلتها ، إذن كانت سليمة » . قالت العجوز وقد قلّ صبرها قليلاً : « ولكنها في الباطن سامة ، في الباطن » . قال الصبي باصرار ، وعيناه على الدجاجة : « لا أعتقد ، في الباطن كان هناك ثلج طيلة الوقت . أظن أني أستطيع « طبخها » .

انزعجت العجوز ، وقالت له حاسمة الأمر : « أنت تأتي معي إلى الدفن . أعتقد أن سيادة اللورد قد فعل ما يكفي من أجلك كي تسير باحترام وراء نعشه » . لم يجبها الصبي . وفيما كانت تعقد المنديل الصوفي الأسود حول عنقها ، تناول الدجاجة

من بين الثلج ، ونفخ الآثار الأخيرة منه عليها ، ووضعها على قطعتي حطب أمام الموقد . كان يجب أن يذوب الثلج الباقي . ولم تعد العجوز تنظر إليه . وعندما أصبحت جاهزة ، أمسكت بيده ، وجرّته معها نحو الباب إلى الخارج .

سار معها بعض المسافة طائعاً . كان هناك المزيد من الناس في طريقهم إلى المقبرة ، رجال ونساء . فجأة أطلق صرخة ألم . لقد انغرزت قدمه في قطعة جليد . فسحبها بوجه منقبض ، وعرج إلى حجر وجلس عليها وهو يدلّك قدمه . قال :«التوت قدمي». نظرت إليه العجوز مرتابة وقالت له :«تستطيع أن تجري جيداً». قال متكدراً : « لا، وإذا كنت لا تصدقيني ، بامكانك أن تجلسي إلى جانبي، إلى أن تتحسن » .

جلست العجوز إلى جانبه دون أن تتفوّه بكلمة . ومضت ربع ساعة ، وأهالي من القرية يمرون بهما ، إنما بالطبع دائماً أقلّ . وقبع الأثنان متعاندين على حافة الطريق . قالت العجوز بعدئذ بجديّة : « ألم يعلمك بأن لا تكذب ؟ » . لم يجبها الصبي . فانتصبت العجوز وهي تتنهّد . لم تعد تحتمل البرد . ثم قالت له : «إذا لم تتبعني خلال عشر دقائق ، فسوف أخبر أخاك ، وسوف يشبع قفاك ضرباً » . وتابعت مشيتها المترجرجة بعجلة كي لا تفوتها خطبة الدفن .

انتظر الصبي حتى أصبحت بعيدة كفاية ، وانتصب ببطء . ثم عاد أدراجه ، إنما وهو يتلفت مراراً إلى الوراء ويعرج كذلك لمسافة . وعندما حجبه سياج عن العجوز ،عاود المشي كالمعتاد .

في الكوخ قعد إلى جانب الدجاجة وهو يتطلع إليها بشوق . سوف يسلقها في قدر ويأكل جانحاً منها . عندئذ سيرى ما إذا كانت سامة أم لا .

وكان ما يزال قاعداً عندما سمع من بعيد ثلاث طلقات مدفعية . لقد أُطلقت تكريماً لفرنسيس بيكون ، بارون فيرولام ، فيكونت سانت ألبن ، مستشار لوردية انكلترا سابقاً ، الذي أثار الاشمئزاز في الكثيرين من معاصريه ، إنما أثار في الكثيرين أيضا الحماس للعلوم النفعية .

* * *

دائرة الطباشير الأوغسبورغية

في زمن حرب الثلاثين(*) كان هناك بروتستانتي سويسري اسمه تسينغلي يملك مدبغة كبيرة مع متجر للجلود في المدينة الملكية الحرة اوغسبورغ على نهر الليش . كان متزوجاً بامرأة أوغسبورغية ، وله طفل منها . وعندما زحف الكاثوليك على المدينة نصحه أصدقاؤه وألحوا عليه بالهروب . لكنه ،ربما أعاقته أسرته الصغيرة ،ربما لم يرد التخلي عن مدبغته ، على كل لم يحسم أمره بالرحيل في الوقت المناسب .

وهكذا ، عندما اقتحمت القوات القيصرية المدينة ، كان هو ما يزال فيها ، فلما جرى السلب والنهب مساء ، اختبأ في حفرة في الحوش ، حيث تحفظ الأصباغ . وكان على زوجته أن ترحل مع طفلها إلى أقربائها في الضاحية ، لكنها استغرقت وقتاً طويلاً في ضبّ أشيائها وملابسها وزينتها وفرشها . وهكذا رأت فجأة من نافذة الطابق الأول فصيلاً من الجنود القيصريين يقتحمون الحوش . فتركت من ذعرها كل شيء في موضعه وهرعت هاربة عبر الباب الخلفي .

(*) بدأت في عام 1618 وانتهت في عام 1648 . وأوغسبورغ هي مدينة الأديب . - ملاحظة من المترجم .

وهكذا خلّفت الطفل وراءها في البيت . وكان فِي مهده في البهو يلعب بكرة خشبية معلّقة بخيط من السقف .

لم يكن قد بقي في المنزل سوى خادمة صبية . كانت في المطبخ تتعاطى مع النحاسيات ، عندما سمعت ضجّة قادمة من الزقاق . اندغرت إلى النافذة ، فرأت كيف يرمي الجنود بالغنائم من الطابق الأول للمنزل قبالتها إلى الزقاق . ركضت إلى البهو تريد أن تتناول الطفل من مهده ، لكنها سمعت ضجيج ضربات عنيفة على الباب السندياني . تملكها الذعر ، فصعدت بسرعة على الدرج .

امتلأ البهو بالجنود السكارى الذين كانوايحطمون كل ما يصادفونه . كانوا يعلمون أنهم موجودون في بيت بروتستانتي . وبما يشبه المعجزة بقيت الخادمة أنّا أثناء التفتيش والنهب غير مكتشفة ، وانسحب الفصيل ، فنبقت أنّا من الخزانة ، حيث كانت مختبئة . إذ ذاك وجدت الطفل في البهو لم يمسّه أحد . وبعجلة تناولت الطفل وانسلّت خارجة عبر الحوش . في هذه الأثناء كان الليل قد حلّ ، لكن الضوء الأحمر لبيت يحترق بالقرب ، أنار الحوش ، فلمحت مذعورة الجثة المشوهة لصاحب البيت . لقد سحبه الجنود من حفرته وقتلوه .

في تلك اللحظة أدركت الخادمة الخطر الذي ستلاقيه ، إن قُبض عليها في الطريق مع الطفل البروتستانتي . فأعادته بقلب محزون إلى مهده ، وأعطته شيئاًمن الحليب ليشربه ، هدهدته حتى نام ومضت في طريقها إلى الحي الذي تقطنه أختها المتزوجة . في الساعةالعاشرة ليلاًتسلّلت مصحوبة من زوج أختها ، عبر حومة الجنود المحتفلين بالنصر ، كي تبحث في الضاحية عن السيدة تسينغلي ، ام الطفل . طرقا على باب بيت ضخم ، فانفتح قليلاً بعد طول وقت . ومدّ رأسه رجل عجوزصغير ، هو عم السيدة تسينغلي . فأخبرته أنّا وهي تلهث ، بأن السيد تسينغلي مات ، إلا أن الطفل ما زال سليماً معافى في البيت . نظر العجوز إليها بعينيه السمكيتين ببرود وقال إن ابنة أخيهلم تعد هنا ، وإنه شخصياً لا علاقة له بالبروتستانتي ابن الحرام . ثم أغلق الباب

ثانية . عند الانصراف رأى صهر أنّا ، كيف تحركت ستارة إحدى النوافذ ، وتوصل للقناعة بأن السيدة تسينغلي كانت موجودة . يبدو أنها لم تخجل من إنكار طفلها .

لبعض الوقت سارت أنّا وصهرها صامتين إلى جانب بعضهما . ثم صرّحت له بأنها تريدالرجوع إلى المدبغة واحضار الطفل . ارتعب الصهر لسماع ذلك ، هو الرجل الهادىء المستقيم ،وحاول أن يصرفها عن الفكرة الخطيرة : ما علاقتها بهؤلاء الناس ؟ حتى أنهم ماكانوا يعاملونها بطيبة . استمعت أنّا إليه بهدوء ووعدته بأن لاتقوم بعمل طائش . إنما تريد فقط ومن كل بدّ أن تلقي نظرة سريعة في المدبغة ، ما إذا كان ينقص الطفل شيء .ثم إنها تريد الذهاب وحدها .

ونفّذت أنّا مرادها . في وسط الصالة المخربة استلقى الطفل في مهده نائماً بهدوء .فجلست متعبة إلى جانبه وجعلت تتأمله ،ولم تجرأ على إشعال النور . غير أن البيت في القرب كان مايزال مشتعلاً . وبهذا الضوء أمكن لها أن ترى الطفل جيداً . كانت له شامة صغيرة على العنق .

مرّ بعض الوقت ، ربما ساعة ، والخادمة تتأمل الطفل ، كيف يتنفس ويمص قبضته الصغيرة ، ثم أدركت أن هذا الجلوس الطويل والفرجة الزائدة لايدلّ على أنها تستطيع الانصراف دون الطفل . فوقفت بتثاقل ، وبحركات بطيئة لفّتة بحرام كتاني ، وشالته على ذراعها ، وغادرت معه الحوش ، وهي تتلفت متخوفة ، مثل شخص يشعر بالذنب ، مثل لصة .

بعد ذلك باسبوعين ، نتيجة مشاورات طويلة مع أختها وصهرها ، أخذت الخادمة الطفل إلى الريف ، إلى قرية غروس ـ أيتنغن ، حيث يعيش كفلاح أخوها الأكبر منها . فالمزرعة تخص زوجتة ، وهو مجرد زوج . فكان الاتفاق أنه ربما من الأفضل أن لاتقول إلا لأخيها من هو الطفل ،فهم لم يلتقوا أبداً بزوجتة الفلاحة الشابة وما كانوا يعلمون كيف ستستقبل ضيفاً صغيراً خطيراً بهذا الشكل .

وصلت أنّا ظهراً إلى القرية ،فيما كان أخوها وزوجتة والأجراء يجلسون إلى طعام الغداء . لم يكن الاستقبال سيئاً ، لكن نظرة منها على زوجة أخيها جعلتها مباشرة تقدم الطفل على أنه طفلها . وبعد أن روت بأن زوجها يعمل في طاحونة في قريةبعيدة وأنه ينتظرها هناك مع الطفل خلال أسبوعين ، عندئذ فقط انبسطت أسارير الفلاحة وجرى كالعادة التعبير عن الإعجاب بالطفل .

بعد الظهر رافقت أخاها إلى الغابة لجلب الحطب . جلسا على قرمتي شجر ،وأفضت أنّا بسرّها . كان واضحاً لها أنه لم يشعر بالسرور . مكانتة في المزرعة لم تكن قد رسخت بعد ، فأثنى على أنّا لأنها كتمت الخبر عن زوجتة . من الواضح أنه لم يكن يتوقع من زوجتة الشابة موقفاً أريحياً تجاه الطفل البروتستانتي . لذلك أراد أن يبقى السر محجوباً عنها .

غير أن هذا لم يكن سهلاً مع الزمن . كانت أنّا تشارك في العمل الزراعي ، وترى « طفلها » خلال ذلك ، بأن تجري من الحقل إلى البيت في الوقت الذي يستريح فيه الآخرون . وترعرع الصغير ، حتى انه سمن ، وكان يضحك كلما رأى أنّا ، ويحاول جاهداً أن يرفع رأسه .

لكن ، من ثم جاء الشتاء ، وبدأت زوجة الأخ تستعلم عن زوج أنّا : لم يكن هناك مانع في أن تبقى أنّا في المزرعة ، فهي تستطيع أن تكون مفيدة . المشكلة في الأمر هي أن الجيران سوف يستغربون من والد طفل أنّا أنه لا يأتي أبداً لرؤيته . فإذا لم تستطع أن تقدم علناً أباًلطفلها ، فإن المزرعة ستتناولها ألسنة الناس قريباً .

وفي صباح يوم من الآحاد جهّز الفلاح العربة وأمر أنّا أن ترافقه لاحضار عجل من القرية المجاورة . مع قرقعة العربة على الطريق اعلمها أنه بحث لها عن زوج وأنه وجده . كان مزارعاً صغيراً ، شديد المرض ؛ عندما دخل الاثنان كوخه الواطىء ، لم

يستطع أن يرفع رأسه النحيل عن الملاءة القذرة . لقد رضي أن يتزوج أنّا . في صدر الكوخ وقفت عجوز صفراء اللون ، هي أمه . لقد وعدوها بتعويض عن الخدمة التي تقدمها لأنّا .

تمت الصفقة خلال عشر دقائق ، وأمكن لأنّا وأخيها أن يتابعا المسير ويزاودا على شراء العجل . في نهاية الأسبوع نفسه تم الزفاف . وفيما كان الكاهن يتمتم بعبارات عقد القران ، لم يلق المريض مرة واحدة نظرة من نظراته الزجاجية على أنّا . فلم يشك أخوها بأنها ستحصل خلال أيام قليلة على شهادة الوفاة . عندئذ سيقال بان زوج أنّا ووالد طفلها قد توفي في طريقه إليها ، في مكان ما من قرية قرب أوغسبورغ . بالتالي لن يستغرب أحد إذا ما بقيت الأرملة في بيت أخيها .

عادت أنّا سعيدة من عرسها الغريب ، الذي لم يكن فيه لاقرع أجراس ولا موسيقى ، لا صبايا ولا ضيوف . واقتصرت وليمة زواجها على تناول قطعة خبز مع شريحة لحم في حجرة الطعام . ثم وقفت مع أخيها أمام الصندوقة حيث يرقد الطفل ، الذي أصبح له الآن اسم . وضبّت اللحاف جيداً ، وضحكت لأخيها .

غير أن شهادة الوفاة تأخرت . فلم يأت خبر من الأم العجوز بالوفاة ، لا في الاسبوع الاول ولا الذي بعده . في المزرعة كانت أنّا تقول ، إن زوجها في طريقه إليها . ثم صارت تقول ، إذا سألها أحد عن سبب تأخره ، إن تراكم الثلوج قد أعاق سفره . لكن بعد أنقضاء ثلاثة أسابيع سافر أخوها ، وقد أقلقه الأمر جدياً ، إلى تلك القرية قرب أوغسبورغ .

عاد الأخ متأخراً في الليل . كانت أنّا ما تزال صاحية ، فهرعت إلى الباب ، عندما سمعت صرير العربة في الحوش . رأت أخاها يقوم ببطء بفكّ الخيل عن العربة ، فانقبض قلبها . لقد حمل أخباراً سيئة : فعندما دخل الكوخ وجد الميت المنتظر جالساً إلى الطاولة يتعشى ، بالقميص ، ويمضغ على الجانبين . لقد استعاد صحته

تماماً . وتابع الأخ إخباريته دون أن ينظر في عيني أنّا . فالمزارع الصغير ـ اسمه بالمناسبة اوتيرر ـ وأمه بديا كذلك مفاجئين بذلك التحول ، وما كانا قد وصلا بعد إلى قرار حول ماسيجري بعدئذ . لم يتكلم هو إلا القليل ، تحديداً بأن طلب من أمه السكوت ، عندما أرادت أن ترثي لزواجه من امرأة غير مرغوبة ولتبنيه طفلاً غريباً . طيلة الوقت كان يأكل الجبن متفكراً ، وكان ما يزال يأكل عندما غادره الفلاح .

في الأيام التالية كانت أنّا طبعاًمهمومة جداً . أثناء عملها المنزلي كانت تعلّم الصبي المشي . عندما كان يفلت من سترتها ويتدهبل نحوها مادّاً ذراعيه ، كانت تتلقاه وتحتضنه بقوة وهي تكتم إجهاشة بالبكاء .

مرة سألت أخاها : أي نوع من الرجال هو ؟ فهي لم تره سوى على فراش الموت وفي المساء على ضوء شمعة ضعيفة . الآن علمت ، أن زوجها خمسيني مستهلك ، مثل أي مزارع صغير .

بعد ذلك بفترة وجيزة رأته . فقد نقل إليها بائع جوال ببالغ السرية ، بأن «أحد معارفها» يريد أن يقابلها في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية عند القرية الفلانية ، على مفرق الطريق الواصلة إلى جبل المنطقة . وهكذا التقى المتزوجان مابين قريتيهما ، كما كان قادة الجيوش يلتقون ما بين صفي مقاتليهم ، في العراء المغطّى بالثلج .

ولم يعجب الرجل أنّا . كانت له اسنان صغيرة رمادية . تأملها من فوق لتحت ، مع أنها كانت محشورة في معطف سميك من صوف الغنم ، فلا يظهر منها الكثير ، وجعل يستخدم عبارة «الرباط المقدس للزواج» . قالت له باقتضاب ، إنه عليها أن تعيد النظر بالأمرمن أصله ، والمرجو منه أن يبلّغها ، بحضور زوجة أخيها ، عن طريق أي تاجر أو قصاب يمر بغروس أيتنغن ، أنه قد مرض على الطريق وأنه سيأتي الآن قريباً . قزّح اوتيرر برأسه وهو بهيئته المتفكرة . كان أطول منها بمقدار الرأس ،

وكان أثناء الحديث ينظرها دائماً على الجهه اليسرى من عنقها ، الأمر الذي كان يثير حنقها .

لكن الرسالة لم تصل . ورازت أنّا في ذهنها أن تغادر فجأة المزرعة مع الطفل ، متابعة نحو الجنوب لتبحث في كيمبتن أو زونتهوفن ، عن عمل . إلا أن انعدام الأمن على الطرق الريفية ، كما كان يقال ، وكون الفصل شتاء ، منعاها من الإقدام على ذلك . كذلك ، الاقامة في المزرعة أصبحت الآن صعبة . فزوجة أخيها توجه إليها على مائدة الغداء أمام الجميع أسئلة مرتابة عن زوجها . وعندما وصل الامر إلى أن قالت مرة ، وهي تنظر إلى الطفل بشفقة كاذبة ، « الدودة المسكينة » ، قررت أنّا أن ترحل رغم كل شيء . وهنا مرض الطفل .

انطرح الطفل في صندوقته مضطرباً ووجهه شديد الحمرة وعيناه خابيتان . فسهرت أنّا عليه ليال وهي ما بين الخوف والرجاء . وعندما بدأ يستعيد صحته ووجدت البسمة إلى وجهه سبيلاً ، عندئذ وقبل ظهر أحد الأيام قُرع الباب ودخل اوتيرر . لم يكن في البيت أحد سوى أنّا والطفل ، وبالتالي لم تكن مضطرة للتمثيل ، وهذا ما كان بالطبع مستحيلاً عليها وهي مذعورة بالمفاجأة . وقفا ملياً دون كلام ، ثم تحدث اوتـيرر بأنه هو الآخر قد فكر بالأمر وأنه جاء ليأخذها معه . ثم نوّه ثانية بالرباط المقدس للزواج . فغضبت أنّا ، وقالت للرجل بصوت واثق وإن كان مكبوتاً ، بأنها لا تفكر بالحياة معه ، وأنها لم تعقد الزواج إلا من أجل طفلها ، وأن كل ما تريده منه هو أن يعطيها وطفلها اسمه .

عندما ذكرت أنّا الطفل ، نظر اوتـيرر عرضاً باتجاه الصندوقة التي احتوت الطفل وبروت ، لكنه لم يتجه نحوه . وهذا ما جعل أنّا تزداد حنقاً عليه . ثم دجّ بضع أقوال : أنه عليها أن تعيد النظر بكل شيء ، وأنه يعيش على قدّ حاله ، وأن أمه يمكن أن تنام في المطبخ .

في هذه اللحظة دخلت الفلاحة ، فحيته بفضول ودعته إلى طعام الغداء . وعند الجلوس إلى الطعام حيّى اوتيرر الفلاح بانحناءة من رأسه ، دون أن يتظاهر بأنه لا يعرفه ، ودون أن يكشف عن أنه يعرفه . وجعل يجيب على أسئلة الفلاحة باقتضاب شديد ، دون أن يرفع نظره عن الصحن : لقد وجد فرصة عمل في ميرنغ ، وأنّا تستطيع أن تنتقل إليه . لكنه لم يعد إلى القول بانه عليها أن تفعل ذلك حالاً . بعد الظهر تجنّب الاجتماع بالفلاح وجعل يكسر الحطب خلف المنزل ، مع أنه لم يطلب أحد منه ذلك . بعد طعام العشاء الذي شارك فيه وهو صامت أيضاً ، أخذت الفلاحة من تلقاء نفسها فراشاً إلى حجرة أنّا ، كي يستطيع هو أن يبيت هناك . وللغرابة فقد نهض عندئذ بتثاقل ، وتمتم بأنه يجب أن يعود في نفس المساء . وقبل أن يذهب ، حملق بنظرة ساهية في صندوقة الطفل ، لكنه لم يقل شيئاً ولم يلمسه .

في الليل مرضت أنّا وأصيبت بالحمى لمدة أسابيع . أمضت أغلب الوقت لا تحسّ بما حولها . بضع مرات فقط عند الظهيرة ، عندما كانت الحمى تتراجع قليلاً ، كانت تزحف إلى الصندوقة وتوضّب اللحاف . وفي الأسبوع الرابع من مرضها قدم اوتيرر إلى المزرعة بعربة نقل وأخذها مع الطفل . وقد تركت ذلك يحدث دون أن تنبس بكلمة .

واستعادت أنّا صحتها ، إنما ببطء شديد ، ولا عجب مع الحساء المريق في كوخ المزارع الصغير . لكنها في أحد الصباحات رأت القذارة التي تُرك فيها الطفل ، فقررت النهوض . استقبلها الصغير بابتسامته اللطيفة ، التي كان أخوها يزعم دائماً أنه اكتسبها منها . كان قد نما . وأخذ يزحف بسرعة عجيبة في أرجاء الحجرة ، وهو يخبط بيديه ويصدر صرخات صغيرة عندما يقع على وجهه . حمّمته جيداً في طشت خشبي واستعادت بذلك طمأنينتها .

بعد بضعة أيام لم تعد بالطبع تحتمل الحياة في الكوخ . فقمّطت الصغير ببضع أغطية ، وضبّت خبزة وشيئاً من الجبن وولت . كان في ذهنها أن تذهب إلى زونتهوفن ،

لكنها لم تبعد كثيراً . كانت ركبتاها بالكاد تقويان على حملها ، والناس أصبحوا بسبب الحرب كثيري الشك والبخل . في اليوم الثالث من ارتحالها التوت قدمها بحفرة في الطريق . وبعد ساعات طويلة ، قلقت فيها على الطفل ، نُقلت إلى إحدى المزارع ، حيث وجب عليها أن تستلقي في الاسطبل . فكان الصغير يتنقل زاحفاً بين قوائم البقر ، ويضحك عندما تصرخ من خوفها عليه . بالأخير اضطرت أن تذكر لجماعة المزرعة اسم زوجها ، فجاء هذا وأعادها إلى ميرنغ .

بعد ذلك لم تحاول الهرب وقبلت بنصيبها . وصارت تعمل بكدّ . كان من الصعب أن يستخرج المرء شيئاً من هذه الأرض الصغيرة ، وأن يدبّر حياته المعيشية . غير أن الرجل لم يكن غير لطيف تجاهها ، والصغير أصبح شبعان . كذلك كان أخوها يمرّ ويجلب لها معه من هذا وذاك على سبيل الهدية ، حتى أنها استطاعت مرة أن تصبغ للصغير ثوباً بالأحمر . فقد فكرت ، إن هذا يناسب ولا بدّ طفل الصباغ . مع الزمن أصبحت راضية تماماً وعاشت الكثير من السعادة بتربية الصغير . وهكذا مرت سنة .

لكن ، في أحد الأيام ذهبت إلى القرية لتجلب عسل السكر ، وعندما عادت لم تجد الطفل في الكوخ ، فأخبرها زوجها بأن امرأة أنيقة مرت بعربة وأخذت الطفل . إذ ذاك استندت إلى الحائط مدووخة من الذعر . وفي نفس المساء توجهت إلى اوغسبورغ وهي لا تحمل سوى صرة ببعض ما يؤكل . في المدينة القيصرية قصدت أولاً المدبغة ، لكن لم يُسمح لها بالدخول ولم تتمكن من رؤية الطفل .

حاولت اختها وصهرها أن يعزياها ، لكن دون جدوى . ذهبت إلى الإدارة المحلية وصرخت بعصبية ، أن طفلها قد سرق . ووصل الأمر بها إلى التلميح بأن بروتستانتيين قد سرقوا طفلها . فأعلموها أن ظروفاً أخرى تسود الآن ، وأن صلحاً قد عقد الآن بين الكاثوليك والبروتستانت . وما كانت لتفوز بطائل ، لولا أن ظرفاً خاصاً سعيداً خدمها . فقد حُولت دعواها إلى قاض من نوعية مميزة جداً . إنه القاضي اغناتس

دولينغر ، المشهور في كل منطقة شفابيا ، بسبب فظاظته ومفهوميته ، والذي عمدّه أمير بافاريا باسم « هذا الفلاح الزبل اللاتيني » ، على أثر خصومة قضائية حول المدينة القيصرية الحرة ، في حين كان الشعب البسيط يتغنّى بسيرته الحميدة .

ذهبت أنّا برفقة أختها وصهرها إلى المحكمة ووقفت أمام القاضي . كان قصير القامة ، بديناً ، متقدماً في السن . يجلس في حجرة ضئيلة عارية بين أكداس من رقوق الكتابة . لم يستمع اليها إلا قليلاً ، ثم كتب شيئاً على ورقة ، وهمهم : « تقدمي إلى هناك ، إنما بسرعة ! » ، وهو يوجهها بيد صغيرة غليظة إلى موضع من الحجرة يضيئه نور قادم عبر النافذة الضيقة . تملّى وجهها لبضع دقائق ، ثم أومى إليها مع تنهيدة عميقة بالانصراف .

في اليوم التالي أرسل خادم المحكمة يستدعيها . عند العتبة صرخ قائلاً لها : «لماذا لم تذكري أن الأمر يتعلق بمدبغة مع مزرعة رائعة ؟! » قالت أنّا بصوت مخنوق ، إن الأمر بالنسبة لها يتعلق بطفل . فصرخ القاضي : « لا تتوهمي بأنك تستطيعين لهط المدبغة . إذا كان ابن الحرام لك فعلاً ، فان المزرعة تؤول إلى أقرباء التسينغلي » . هزّت أنّا برأسها موافقة ، دون أن تنظر إليه ، ثم قالت : « هو لا يحتاج إلى المدبغة » . وزمجر القاضي : « أهو لك ؟ » . أجابت بصوت منخفض : « نعم . لو يُسمح لي أن احتفظ به إلى أن يتمكن من كل الكلمات فقط . فهو لا يعرف الآن سوى سبعة » . سعل القاضي ورتّب الرقوق على مكتبه . ثم قال بهدوء أكثر ، إنما بنبرة ما زالت مغتاظة : « أنت تريدين القزم ، والعنزة هناك بفساتينها الحريرية الخمس تريده . أما هو فيحتاج إلى الأم الحقيقية » . ـ « نعم » ، قالت أنّا ونظرت إلى القاضي . فهمهم : « انقلعي ، إلى الجلسة يوم السبت ! » .

في يوم السبت الموعود كان الشارع الرئيسي والساحة أمام القصر البلدي سوداوين من كثرة البشر الذين أرادوا حضور قضية « طفل البروتستانت » . فهذا الحدث النادر

كان منذ البداية محطّ الاهتمام العام ، وفي المساكن والمحلات العامة ثار جدل حول تحديد الأم الحقيقية والأم المزيفة . كما أن دولينغر العجوز كان مشهوراً في طول البلاد وعرضها بمحاكاته الشعبوية المليئة بالحكم والأقوال اللاذعة . كانت جلساته محبوبة أكثر من أعياد الكنيسة . وهكذا احتشد أمام القصر البلدي ليس فقط الكثير من الاوغسبورغيين ، بل كذلك لم يكن هناك القليل من فلاحي الجوار . ففي يوم الجمعة كان ثمة سوق ، وقد باتوا في المدينة بانتظار المحاكمة .

جرت المحاكمة في القاعة المسماة القاعة الذهبية . وكانت مشهورة بأنها القاعة الوحيدة في كامل ألمانيا التي بهذا الحجم دون أعمدة ، سقفها كان معلقاً بسلاسل في قمة القاعة . جلس القاضي دولينغر ، كجبل صغير مدور من اللحم ، أمام البوابة الرئيسية لأحد الجدران الطولانية . حبل عادي كان يفصل المشاهدين . أما القاضي فجلس على الأرض المستوية دون طاولة أمامه . كان هو الذي رتّب ذلك قبل سنوات ، فقد كان يهتم كثيراً بالمظهر .

ضمن البقعة المحصورة بالحبل تواجدت السيدة تسينغلي مع أهلها ، وقريبان للمتوفي السيد تسينغلي الذين قدموا من سويسرا ، وهما رجلان وقوران حسنا الهندام ، يبدوان كتاجرين مرموقين ، وأنّا اوتيرر وأختها . إلى جانب السيدة تسينغلي كان يرى المرء مرضعة مع الطفل . الجميع ، من متخاصمين وشهود ، كانوا واقفين . فقد كان القاضي دولينغر يردّد بأن المحاكمات تجري بسرعة إذا توجب على أصحابها الوقوف . وربما كان لا يأمر بوقوفهم إلا لكي يحجبوه عن الجمهور ، بحيث لا يراه المرء إلا إذا وقف على رؤوس قدميه ومد عنقه .

في بدء الجلسة وقعت حادثة . فعندما نظرت أنّا الطفل ، أصدرت صرخة وتقدمت إليه ، والطفل أراد الذهاب إليها ، خبط بقوة بين ذراعي المرضعة وأخذ يجعر . فأمر القاضي بإخراجه من القاعة .

ثم نادى القاضي على السيدة تسينغلي . تقدمت متبخترة وسردت ، وهي من وقت لآخر تهوّي العينين بمنديل جيب ، كيف اختطف منها طفلها أثناء نهب الجنود القيصريين . وأن الخادمة جاءت في المساء ذاته إلى والدها وأخبرتهم أن الطفل ما زال في البيت ، ربما كي تنال حلواناً . غير أن طباخة أبيها التي أُرسلت إلى المدبغة لم تجد الطفل ، وهي تظن بأن هذه (تقصد أنّا) استولت عليه كي تبتزّ المال بطريقة ما . وهي كانت بالتأكيد عاجلاً أم آجلاً ستتقدم بمطلب كهذا ، لو لم يجر قبلئذ انتزاع الطفل منها .

ونادى القاضي على قريبي السيد تسينغلي وسألهما عما إذا كانا قد استعلما وقتذاك عن السيد تسينغلي وبماذا حدثتهما عنه السيدة تسينغلي . قالا ، إن السيدة تسينغلي أعلمتهما أن زوجها قد قتل وأنها تركت طفلها أمانة عند خادمة وأنه في الحفظ والصون عندها . تحدثا بلهجة غير لطيفة عنها ، وهذا ليس مستغرباً ، إذ أن المزرعة ستؤول إليهما ، إذا ما خسرت السيدة تسينغلي القضية .

بعد أن أدليا بشهادتهما التفت القاضي ثانية إلى السيدة تسينغلي وأراد أن يعلم منها ، ما إذا كانت أثناء المداهمة قد فقدت صوابها وتركت الطفل لمصيره . نظرت إليه السيدة تسينغلي بعينيها الزرقاوين الفاتحتين كالمتعجبة وقالت ممتعضة ، بأنها لم تترك طفلها لمصيره . تنحنح القاضي وسألها باهتمام ، عما إذا كانت تعتقد بأنه لا يمكن لأي أم أن تتخلى عن طفلها . قالت بثقة ، نعم ، هي تعتقد ذلك . فتابع القاضي سائلاً ، ما إذا كانت الأم التي تفعل ذلك تستحق أن تُضرب على قفاها ، مهما كثرت الفساتين التي تلبسها ؟ .

لم تجب السيدة تسينغلي ، فنادى القاضي على الخادمة السابقة أنّا . تقدمت بسرعة وردّدت بصوت منخفض ما سبق قالته في التحقيق الأولي . لكنها كانت تتكلم وكأنها تستمع في نفس الوقت ، ومن لحظة لأخرى تنظر إلى الباب الكبير ، الذي إلى خلفه

أخذ الطفل ، وكأنها كانت تخشى أن يكون ما زال يصرخ . صرّحت بأنها ذهبت فعلاً في ذلك الليل إلى بيت عم السيدة تسينغلي ، لكنها لم تعد إلى المدبغة خوفاً من القيصريين ولأن بالها كان مشغولاً على طفلها الخاص والوحيد الذي أودعته أناساً طيبين في قرية ليشهاوزن المجاورة .

قاطعها دولينغر العجوز بفظاظة وتلقف الحديث قائلاً ، إنه كان هناك إذن على الأقل شخص واحد بالمدينة يشعر بشيء مثل الخوف . ويسره أن يلمس ذلك ، لأن ذلك يبرهن على أنه كان وقتذاك ثمة شخص واحد على الأقل ما زال يملك شيئاً من العقل . على أنه ليس جميلاً من الشاهدة أن تهتم فقط بطفلها الخاص ، إنما كما يقال في لغة الشعب « الدم لا يصير ماءً » ، والأم الحقيقية تسرق من أجل طفلها ، غير أن هذا محظور في القانون ، لأن الملكية الخاصة هي الملكية الخاصة ، ومن يسرق ، يكذب أيضاً ، والكذب محظور في القانون أيضاً . ثم أعطى بعد ذلك أحد دروسه الحكيمة والفجة عن احتيال الناس الذين يضللون المحكمة ، حتى تزرقّ وجوههم . وبعد شطحة قصيرة تحدث فيها عن الفلاحين الذين يخلطون بالماء حليب البقرات البريئات ، وعن المجلس البلدي ، الذي ينال من الفلاحين ضريبة سوق عالية ، والذي لم تكن له علاقة بالقضية على الاطلاق ، أعلن بأن الاستماع إلى الشهود انتهى وأنه لم يُسفر عن شيء .

بعد ذلك أمضى استراحة طويلة ، بدت عليه أثناءها كل امارات الحيرة ، فكان يتلفت حوله كما لو كان ينتظر من جهة ما اقتراحاً يصل به إلى نتيجة نهائية . نظر الناس إلى بعضهم مدهوشين ، وبعضهم اشرأب بعنقه ، كي يرى القاضي في حيرته . لكن الهدوء بقي سائداً في القاعة ، إنما كان المرء يستطيع أن يسمع صوت الجمهور في الشارع .

ثم عاد القاضي واستلم الحديث ثانية وهو يتنهد . قال : « لم يتبين من هي الأم الحقيقية . الأسف على الطفل ، يسمع المرء كثيراً عن آباء يتملصون ولا يريدون أن

يكونوا آباء ، هؤلاء الأنذال ، إنما هنا عندنا أمان دفعة واحدة . وقد استمعت اليهما المحكمة بالقدر الذي تستحقانه ، بالضبط خمس دقائق لكل منهما ، وقد وصلت المحكمة إلى القناعة بأن كلاهما تكذبان . على أنه يجب التفكير بالطفل ، فهو يحتاج ولا بدّ إلى أم . يجب إذن ، دون كثرة ثرثرة ، إثبات من هي الأم الحقيقية للطفل » .

وبصوت ممتعض نادى خادم المحكمة وأمره أن يجلب طبشوراً . فذهب خادم المحكمة وجلب قطعة طباشير . فوجهه القاضي قائلاً : « ارسم بالطبشور هناك على الأرض دائرة تتسع لوقوف ثلاثة أشخاص ! » . فانحنى الخادم ورسم بالطبشور الدائرة المطلوبة . ثم أمره القاضي : « الآن أحضر الطفل ! » .

أُحضر الطفل . ومن جديد عاد إلى العويل يريد أنّا . لكن دولينغر العجوز لم يهتم لهذا الجعير ، إنما أعطى تعليماته بنبرة أعلى . أعلن قائلاً : « هذا الاختبار الذي سنجريه الآن قرأته في كتاب قديم ، ويعتبر جيداً بحق . الفكرة الأساسية البسيطة للاختبار بدائرة الطباشير هي أن الأم الحقيقية تُعرف بمحبتها للطفل . إذن سيجري اختبار قوة هذه المحبة . ياخادم المحكمة ، ضع الطفل ضمن دائرة الطباشير ! » .

أخذ خادم المحكمة الطفل وهو يجعر من يد الممرضة واقتاده إلى داخل الدائرة . وتابع القاضي موجهاً كلامه إلى السيدة تسينغلي وإلى أنّا : « قفا أنتما أيضاً ضمن الدائرة ، ولتمسك كل واحدة منكما بإحدى يدي الطفل ، وعندما أقول « ابتدي » ، عندئذ حاولا أن تسحبا الطفل إلى خارج الدائرة . والتي تملك من بينكما محبة أقوى ، سوف تسحب بقوة أكبر وتجذبه إلى ناحيتها » .

في القاعة حدث ضجيج . وقف المتفرجون على رؤوس أقدامهم وأخذوا يتشاجرون مع الذين أمامهم . و عندما دخلت المرأتان ضمن الدائرة وأمسكت كل واحدة منهما بإحدى يدي الطفل ، عاد الهدوء المطبق . كذلك خرس الطفل ، كما لو أنه

أدرك حقيقة الأمر ، فأدار وجهه المليء بالدموع المنسابة متطلعاً نحو أنّا . ثم جاء أمر القاضي : « ابتدي ! » .

بسحبة قوية واحدة انتزعت السيدة تسينغلي الطفل خارج الدائرة . وتطلعت أنّا إليه متكدرة وغير مصدّقة . فمن خوفها أن يتأذى من سحبه بذراعيه إلى اتجاهين متعاكسين في نفس الوقت ، أفلتته مباشرة . هنا وقف دولينغر العجوز ، وقال بصوت عال : « بذلك نعلم من هي الأم الحقيقية . خذوا الطفل من هذه الشخنّة . ستمزقه بكل برودة قلب » . وأومى لأنّا وخرج مسرعاً من القاعة إلى فطوره .

في الأسابيع التالية تناقل فلاحو الضواحي ، الذين لم ينخدعوا بما جرى ، بأن القاضي ،عندما حكم للمرأة الميرنغية بالطفل ،قد غمزها بعينيه .

* * *

جندي لاسيوتا(*)

بعد الحرب العالمية الأولى رأينا في الساحة العامة للمدينة الساحلية الصغيرة لاسيوتاLa Ciotat ، الواقعة جنوب فرنسا ، وذلك أثناء المهرجان السنوي لتدشين السفن ، تمثالاً برونزياً لجندي من الجيش الفرنسي ، تتزاحم حوله الجموع . اقتربنا منه ، فاكتشفنا أنه إنسان من لحم ودم ، يقف في شمس حزيران اللاهبة ، على قاعدة حجرية بلا حراك ،مرتدياً معطفاً رمادياً بلون الأرض ، الخوذة على الرأس ،والحربة في يده ، وقد طلى وجهه ويديه بلون برونزي . لا يحرك أية عضلة فيه ، حتى أنه لا يرمش له جفن .

عند قدميه ،على القاعدة الحجرية تستند قطعة من الورق المقوى ، يمكن قراءة النص التالي عليها :

الانسان التمثال Homme Statue

أنا شارل لوي فرانشار ، جندي في الكتيبة الكذا ، اكتسبت نتيجة وأد بالقرب

(*) ترجمة عبدو زغبور ، مراجعة بوعلي ياسين .

من فردان المقدرة الخارقة على أن ألبث جامداً تماماً بلا حراك ولفترة زمنية غير محدودة كتمثال . فنيّ هذا اختُبر من قِبَل أساتذة كثر ، ووصفوه بأنه مرض لا يُدرى كنهه . تبرعوا ، رجاءً ، إلى ربّ عائلة بلا وظيفة ، بصدقة صغيرة ! .

رمينا بقطعة نقود في الصحن الموضوع إلى جانب اللوحة ، وتابعنا السير هازّين رؤوسنا .

هنا إذن ، هكذا فكرنا ، يقف شاك السلاح ، جندي آلاف السنين الصامد ، هذا الذي صُنع مع التاريخ ، الذي أتاح كل تلك الأعمال العظيمة للاسكندر وقيصر ونابليون ، التي نقرأ عنها في الكتب المدرسية . ها هو ذا لا يرمش له جفن . إنه نبّال سيروس ، وسائق عربات قمبيز المنجلّية ، الذي لم تستطع رمال الصحراء أن تواريه تماماً ، وجندي يوليوس قيصر ، الفارس الرمّاح لجنكيزخان ، والمرتزق السويسري لدى لويس الرابع عشر ، وجندي المشاة لدى نابليون الأول . يملك المقدرة التي مع ذلك ليست هكذا غير عادية ، بأن لا يُبدي أي أثر ، إذا ما جُرّبت عليه كل آلات الفناء التي يمكن تصورها . مثل الحجر ، بلا إحساس (يقول هو) ، يلوذ بالصمت إذا ما أُرسل إلى الموت . يقف مُثقّباً برماح العصور المختلفة ، الحجري والبرونزي والحديدي ، ومدهوساً بعربات القتال التابعة لأرتحشتنا والجنرال لودندورف ، وممعوساً بفيلة هانيبال وخيالة أتيّلا ، وممزقاً بالشظايا المتطايرة من المدافع المطّردة التطور منذ مئات السنين ، كما من الحجارة الطائرة من المنجنيقات القاذفة ، وممزقاً برصاص كبير بحجم بيض الحمام وصغير كالنحلة ، هكذا يقف صامداً ، دائماً من جديد ، مأموراً بلغات لا تحصى ، إنما على الدوام جاهلاً لماذا ولأجل أي شيء . الأراضي التي يحتلها لا يتملكها هو ، كالبنّاء الذي لا يسكن البيت الذي يبنيه . حتى البلاد التي يدافع عنها ليست له . بل إنه لا يملك سلاحه ولا بزّته . لكنه يقف ، وفوقه مطر الموت المتساقط من الطائرات ، والقار الحارق لأسوار المدن المحاصرة ، وتحته الألغام والفخاخ ، وحوله الطاعون والغاز

الأصفر القاتل ، هو جعبة من لحم للحراب والسهام ، وهو الهدف ، ووحل الدبابات وموقد الغاز ، أمامه العدو وخلفه الجنرال ! .

لا تُحصى الأيادي التي حاكت له السترات ، والتي طرقت له الدروع ، والتي فصّلت له الأحذية ! ولا تُعدّ الجيوب التي امتلأت بفضله ! ولا يُقاس الصراخ المنطلق في كل اللغات لإثارة حماسه ! وما من ربّ إلا وباركه ! هو الموصوم بجذام الصبر المريع ، المنخور بمرض لا شفاء منه ، مرض انعدام الأحاسيس .

ياله من وأد ـ فكرنا نحن ـ ، هذا الذي يجزيه هذا المرض المخيف والمهول والمعدي للغاية ! . أليس من اللازم ـ سألنا أنفسنا ـ أن يكون مع ذلك قابلاً للشفاء ؟

* * *

الابنان(*)

في كانون الثاني من عام 1945 ، عندما كانت حرب هتلر تسير إلى نهايتها ، حلمت فلاحة من منطقة تورينغن أن ابنها في الحقل يناديها ،فخرجت وهي خدرة بالنعاس إلى الحوش ، وهيىء لها أنها ترى ابنها عند المضخة يشرب . وعندما تكلمت إليه تبين لها أنه شاب من أسرى الحرب الروس الذين ينفذون أعمال سخرة في المزرعة . بعد عدة أيام من ذلك حدث لها حادث غريب . فقد حملت للأسرى طعامهم ، حيث كانوا في غابة صغيرة يقومون بقلع قـــرم الأشجار . في طريق عودتها نظرت عبر كتفها إلى الوراء ، فرأت الشاب أسير الحرب نفسه ، وهو بالمناسبة إنسان معلول ، يدير وجهه نحو وعاء معدني قدمه له أحدهم بالحساء ، وذلك بهيئة خائبة ، وفجأة تحول هذا الوجه إلى وجه ابنها . في الأيام التالية حدث لها مراراً أن رأت تحولات سريعة وغائمة لوجه هذا الشاب إلى وجه ابنها . ثم أصبح أسير الحرب هذا مريضاً ، وبقي بلا رعاية مطروحاً في مخزن الغلال . استشعرت الفلاحة ضرورة متزايدة في أن تحضر له شيئاً مقوياً ، بيد أن أخاها ، وهو معاق حرب ، حال بينها وبين ذلك .كـــان أخوها هو مدير المزرعة ، وكان يعامل الأسرى بجلافة ، لا سيما الآن ، حيث اختلط الحابل بالنابل ،

(*) ترجمة عبدو زغبور ، مراجعة بوعلي ياسين .

وبدأت القرية تخاف من الأسرى . حتى الفلاحة نفسها لم تستطع أن تتجاهل حجج أخيها ، فليس من الحق بأية حال مساعدة هذه الحثالة من البشر الذين سمعت عنهم أشياء مرعبة . كانت تعيش في خوف مما يمكن أن يفعله الأعداء بابنها ، الذي يحارب في الشرق . وهكذا وقبل أن تنفّذ نصف مرادها في مساعدة هذا الأسير في وحشته ، فاجأت في أحد المساءات مجموعة من الأسرى في بستان مغطى بالثلج ، مجتمعين في البرد ،كي يبقوا الحديث سراً بينهم . كان الشاب واقفاً بينهم وهو يرتعد من الحمى ، وربما بسبب السوء الزائد لحالته ، كان أكثر من جفل لرؤيتها . في وسط هذا الرعب حدث ثانية ذلك التحول الغريب لوجهه ، حيث رأت فيه وجه ابنها وقد تملكه رعب شديد . شغلها هذا من الأعماق ، وكما أنها أداءً للواجب قررت إخبار أخيها عن الحديث الذي جرى في البستان ، كذلك قررت أن تدفع للشاب بقطعة اللحم المقدد التي كانت قد حضّرتها له . وقد تبين لها أن هذا ، ككل الأعمال الطيبة في عهد الرايخ الألماني الثالث ، عمل صعب ومحفوف بالمخاطر . فبهذا العمل تجعل من أخيها عدواً لها ، كما لا تستطيع أن تكون على ثقة من أسرى الحرب .ومع ذلك تم لها ما أرادت . إلا أنها اكتشفت أن الأسرى ينوون الهرب ، إذ كان يزداد يومياً الخطر بأن يجرجروهم معهم في انسحابهم أمام الجيش الأحمر نحو الغرب أو ببساطة أن يقضوا عليهم . لم تستطع الفلاحة في سريرتها أن تصدّ رغبات الشاب الأسير الذي ربطها به حدث التحوّل الغريب ، والذي أوضح لها هذه الرغبات بقليل من الكلمات الألمانية المكسّرة وباشارات إيمائية . وتركت نفسها هكذا تتورط في خطط الأسرى للهروب . أحضرت سترة ومقصاً معدنياً كبيراً . والمدهش أن التحول لم يعد يحدث مذّاك ، وأن الفلاحة تساعد الآن الانسان الشاب الغريب فحسب .

وهكذا هالها أن تسمع في أحد صباحات نهاية شباط دقات على النافذة ، وأن تلمح عبر النافذة في غبش الفجر وجه ابنها . إنه ابنها هذه المرة . كان يرتدي بزة ممزقة لفرقة الإس إس ، فقد سحقت قطعته ، وأخبر مضطرباًأن الروس لايبتعدون سوى

بضعة كيلو مترات فقط عن القرية . ويجب من كل بدّ التكتم على عودته إلى البيت . وكما في مجلس حربي ، جمع كلاً من الفلاحة وأخيها وابنها في إحدى زوايا عليّة البيت ، قرروا قبل كل شيء القضاء على اسرى الحرب ، لأنه من الممكن أن يكونوا قد رأوا رجل الإس إس ، وعلى العموم يُتوقع أن يصرّحوا بسوء معاملتهم . في مكان قريب كان ثمة مقلع . وقد أصر رجل الإس إس على أنه يجب في الليلة القادمةاستـدراجهم فرداً فرداً من مخزن الغلال والقضاء عليهم . بعد ذلك يمكن سحب الجثث إلى المقلع . أما في المساء فيجب أن يحصلوا على بعض الكؤوس من الكونياك ، فهذا - كما ارتأى الأخ - يجعلهم لا ينتبهون كثيراً ، لأنه كان هو بالاتفاق مع الخدم في الفترة الأخيرة عن قصد لطيفاً تجاه هؤلاء الروس ، لكي يجعلهم في اللحظة الأخيرة مرحين بشكل مناسب . عندما شرح رجل الإس إس خطته هذه ، رأى فجأة أمه ترتجف . فقرر الرجلان أن لا يتركاهامن بعد وبأي حال تقترب من مخزن الغلال . وهكذا انتظرت الليل وهي مرتاعة . كما يبدو تقبل الروس الكونياك شاكرين ، وسمعتهم انفلاحة يغنون أغانيهم الحزينة وهم ثملون . لكن ، عندما ذهب أخوها حوالي الساعة الحادية عشرة إلى مخزن الغلال ، كان الأسرى قد هربوا . لقد تظاهروا بالثمالة . فهذا اللطف غير الطبيعي من أهل المزرعة هو الذي أقنعهم بأن الجيش الأحمر يجب أن يكون قريباً جداً .

في النصف الثاني من الليل جاء الروس . كان الابن مطروحاً في العليّة ثملاً ، بينما تحاول الفلاحة وقد تملكها الفزع أن تحرق بزة الإس إس . كذلك أخوها كان ثملاً ؛ فتوجب عليها أن تستقبل بنفسها الجنود الروس وتطعمهم . وقد فعلت ذلك بوجه متحجّر . في الصباح انسحب الروس ،فالجيش الأحمر يتابع زحفه . وعاد الابن ، وقد ظهرت عليه علائم السكر والسهر ، يطلب الكونياك من جديد ، معبّراً عن رغبته الأكيدة في أن يشق طريقه إلى فصائل الجيش الألماني المهزوم ، لكي يتابع القتال . لم تحاول الفلاحة أن توضح له أن متابعة القتال لا تعني سوى الموت المؤكد .

وبصورة يائسة رمت بنفسها في طريقه ، محاولة بجسدها أن تثنيه عن عزمه . لكنه دفعها إلى الخلف فارتمت على التبن . وفيما كانت تحاول النهوض تحسّست قطعة حطب في يدها ، فضربت بها هذا الأحمق .

في اليوم نفسه ، قبل الظهر ، كانت ثمة فلاحة تجرّ في أقرب بلدة مجاورة عربة إلى مبنى القيادة الروسية ، وتسلّم ابنها وهو موثوق بحبل للثيران كأسير حرب ، وذلك ـ كما حاولت أن توضح للمترجم ـ كي يحافظ على حياته .

* * *

العجوز الوضيعة(*)

كانت جدتي تبلغ الثانية والسبعين من العمر عندما توفي جدي . وكان جدي يملك مطبعة حجرية صغيرة في بلدة من منطقة بادن ، واستمر يعمل فيها مع اثنين أو ثلاثة من المساعدين حتى وفاته . وكانت جدتي تتولى الأعمال المنزلية دون خادمة ، تعتني بالبيت القديم المتزعزع وتطبخ للعاملين والأطفال . كانت امرأة صغيرة نحيلة ، لها عينا سحلية يقظتان ، إنما بطيئة في الكلام . بامكانيات زهيدة ربّت خمسة أطفال حتى كبروا ، من أصل سبعة ولدوا لها . لهذا السبب أصبحت مع السنين أكثر صغراً .

من هؤلاء الأولاد ذهبت الفتاتان إلى أميركا ، كما رحل عنها اثنان من الأبناء . فقط أصغرهم ، وكان ضعيف الصحة ، بقي في البلدة ، أصبح طبّاعاً وحمّل نفسه عبء أسرة كبيرة . وهكذا كانت وحيدة في البيت ، عندما توفي جدي .

كان الاولاد يكتبون لبعضهم حول مشكلة ما الذي سيحدث لها . أحدهم عرض عليها السكن عنده ، والطباع أراد أن ينتقل مع أسرته ليسكن عندها . غير أن

---

*) ترجمة عبدو زغبور ، مراجعة بوعلي ياسين .

العجوز كانت ترفض هذه الاقتراحات ، وطلبت ممن يقدر من أولادها أن يقدم لها مساعدات مالية صغيرة . فالمطبعة الحجرية ، التي أصبحت جد قديمة ، لم تكن لتعطي مردوداً تقريباً عند البيع ، وكان ثمة ديون علاوة على ذلك .

كتب لها الأولاد بأنها لاتستطيع العيش هكذا وحيدة تماماً . ولكن عندما لم تتجاوب بتاتاً معهم ، أذعنوا للأمر وأرسلوا لها شهرياً قليلاً من النقود . على كل - فكروا فيما بينهم - ما زال الطباع في البلدة . وقد تولى الطباع إخبار أخوته أيضاً بأحوال الأم . من رسائله إلى والدي ومما علمه في إحدى الزيارات وبعد دفن جدي بسنتين ، أخذت صورة عما حدث خلال هاتين السنتين .

يبدو أن الطبّاع قد خاب أمله منذ البداية ، إذ أن جدتي امتنعت عن قبوله في بيتها الفارغ الآن والكبير نسبياً . كان يسكن مع أربعة أطفال في بيت مؤلف من ثلاث غرف . لكن العجوز حافظت عموماً فقط على صلة جد واهية معه . كانت تدعو الأطفال كل يوم أحدِ بعد الظهر إلى تناول القهوة عندها . وكان هذا، في الحقيقة ، كل شيء . وكانت تزور ابنها مرة أو مرتين كل ربع عام ، وتساعد كنتها في صنع المربيّات . وكان مما استقته المرأة الشابة من أحاديثها ، أن مسكن الطبّاع ضيق عليهم . فلم يستطع هذا الأخير أن يتمالك نفسه من أن يضع في إخباريته على ذلك علامة تعجب . وعلى سؤال خطي من والدي عما تفعله السيدة العجوز ، أجاب بشيء من الاختصار ، إنها تذهب إلى السينما .

على المرء أن يعلم أن ذلك لم يكن شيئاً عادياً ، وفي كل الأحوال ليس في عيون أولادها . لم تكن السينما قبل ثلاثين عاماً مثلما هي عليه اليوم . كان يجري العرض في أمكنة بائسة ، ذات تهوية سيئة ، في الغالب كانت تقام آلات العرض في المحلات القديمة للعبة الجلل ، مع ملصقات صارخة عند المدخل ، تصور الإجرام وتراجيديا العواطف . في الواقع لم يكن يذهب إلى هذه الأمكنة إلا المراهقون أو - بسبب الظلمة - العشاق . فوجود امرأة عجوز وحيدة هناك كان ملفتاً للنظر بالتأكيد .

وثمة وجه آخر لزيارات السينما هذه حريّ بالتفكير . كان ثمن بطاقة الدخول بخساً بالطبع ، لكن هذه التسلية كانت تدرج تقريباً في صنف اللذائذ . هذا يعني « تبذير نقود ». ولم يكن تبذيرالنقود شيئاً يستحق الاحترام .

بالاضافة الى ذلك لم تكن جدتي لا تحافظ على اتصال منتظم مع ابنها في البلدة فحسب ، بل كذلك لا تزور ولا تدعو أحداً من معارفها . ولم تكن تذهب أبداً إلى تَجْمعات تناول القهوة في البلدة . بالمقابل كانت تزور مراراً مشغل اسكافي في زقاق فقير ، وحتى أنه سيء السمعة ، حيث ـ وبشكل خاص بعد الظهر ـ يجلس ما هبّ ودبّ من كائنات غير محترمة ، نادلات وصبيان حرف عاطلين . كان الاسكافي رجلاً متوسط العمر ،وكان قد طاف العالم دون أن يحصّل شيئاً . ويقال إنه كان يحتسي الخمر . في كل الاحوال لم يكن الاحتكاك به لائقاً لجدتي .

في إحدى رسائله ألمح الطبّاع إلى أنه نبّه والدته لهذا الأمر ، إلا أنه حصل منها على جواب بارد . « لقد رأى شيئاً » ، كان جوابها ، وانتهى بذلك الحديث . فلم يكن من السهل التحدث إلى جدتي عن أشياء لا تريد الحديث عنها .

بعد نصف عام تقريباً من وفاة جدي ، كتب الطبّاع إلى والدي ، ان الوالدة تأكل كل ثاني يوم في المطعم . ياله من خبر ! . الجدة التي كانت طوال عمرها تطبخ لدزينة من البشر ، ولا تأكل سوى الفضلات ، تأكل الآن في المطعم ! ما الذي جرى لها ؟ .

بعد ذلك بقليل سافر والدي في مهمة إلى مكان في القرب ، وزار أمه . لقيها فيما كانت على وشك الخروج . نزعت قبعتها ثانية ثم وضعت له كأساً من النبيذ الأحمر مع بعض الكعك المالح . بدت في مزاج معتدل ، لا كثيرة الانبساط ولا كثيرة الصمت . وقد استفسرت منه عن أحوالنا ، لكن في الحقيقة ليس بشكل مستفيض ، بشكل أساسي أرادت أن تعرف ما إذا كان يتوفر الكرز للأطفال . كانت تماماً كما هي دائماً . الحجرة كانت فائقة النظافة ، وبدت هي معافاة .

الشيء الوحيد الذي أنبأ عن حياتها الجديدة ، هو أنها لم ترد الذهاب مع والدي إلى المقبرة لزيارة ضريح زوجها . « يمكنك الذهاب وحدك » ، قالت عَرَضاً ، « إنه الضريح الثالث من اليسار في الصف الحادي عشر . ما زال علي مشوار » . فيما بعد أوضح الطبّاع ، أنها من المحتمل أن تكون ذهبت إلى اسكافيها . كان كثير الشكوى . « أقعد هنا في هذه الحفر مع عائلتي وأعمل فقط خمس ساعات بأجر زهيد ، علاوة على أن الربو يضايقني ثانية ، والبيت في الشارع الرئيسي ينتصب فارغاً » .

كان والدي قد حجز غرفة في فندق البلدة ، لكنه توقع أن تدعوه أمه للسكن عندها ، على الأقل من قبيل الشكليات ، إلا أنها لم تتطرق إلى ذلك . في الماضي ، حتى عندما كان البيت مزدحماً ، كانت تعارض أن لا ينزل عندهم وأن ينفق فوق ذلك النقود على الفندق . لكن يبدو أنها قد انتهت من حياتها العائلية وتسلك دروباً جديدة ، الآن ، حيث توشك حياتها على النهاية . وقد وجدها والدي ، الذي كان يحمل قدراً لا بأس به من روح الفكاهة ، « طريفة جداً » ، وقال لعمي أن عليه أن يترك السيدة العجوز تفعل ما تريد . ولكن ماذا تريد ؟ .

الخبر التالي الذي وصلنا هو أنهااستأجرت حنطور بريغBreggوسافرت به إلى منتزه في يوم خميس عادي . و Bregg هي عربة كبيرة ذات عجلات مرتفعة تجرها الخيول مع مقاعد تتسع لعائلة بكاملها . بعض المرات القليلة ، عندما كنا نحن الأحفاد نأتي بزيارة ، كان الجد يستأجرها لنا . وكانت الجدة تبقى دائماً في البيت . بحركة ازدراء من يدها كانت ترفض الذهاب معنا . وبعد البريغ جاءت سفرتها إلى ك ، وهي مدينة كبيرة تبعد حوالي ساعتين في القطار . هناك كان يجري سباق للخيول ، وإلى سباق الخيل سافرت جدتي .

الآن أحسّ الطبّاع بإنذار الخطر الشديد ، فأراد الاستعانة بطبيب . عندما قرأ والدي رسالته ، هزّ رأسه ، لكنه رفض اللجوء إلى طبيب .

ولم تسافر جدتي لوحدها إلى ك . لقد أخذت معها فتاة شابة ، نصف معتوهة ، كما كتب الطبّاع ، تعمل طباخة في الفندق ، حيث كانت العجوز تأكل كل ثاني يوم . وهذه المشوهة بدأت تلعب دوراً منذ الآن . يبدو أن جدتي قد مسّها شيء من الجنون . كانت تأخذها معها إلى السينما وإلى الاسكافي ، الذي تبين -بالمناسبة- أنه من الديمقراطيين الاجتماعيين ، وسرت إشاعة بأنهما تلعبان الورق في المطبخ فيما تشربان كأساً من النبيذ الأحمر .

وكتب الطبّاع يائساً : « اشترت الآن للمشوهة قبعة عليها ورود . وابنتنا أنّا لا تملك ثوب القربان الكنسي ! » . لقد أصبحت رسائل عمي هستيرية تماماً وتحكي فقط عن « السلوك المشين لأمنا العزيزة » ، ولا تقدم شيئاً أكثر من ذلك . ما تبقى حصلت عليه من والدي . وقد أسرّ له صاحب الفندق غامزاً بعينيه : « كما نسمع ، فان السيدة ب تتسلى الآن » .

في الحقيقة لم تعش جدتي بأي حال حتى في السنتين الأخيرتين مترفة . فإذا لم تأكل في الفندق ، كانت غالباً تأكل فقط قليلاً من البيض مع شيء من القهوة وقبل كل شيء كعكها المفضل . مقابل ذلك كانت تشتري نبيذاً أحمر من النوع الرخيص ، تحتسي كأساً صغيرة منه عند كل وجبة طعام . أما البيت فكانت تحافظ على نظافته ، وليس فقط في حجرة النوم والمطبخ اللذين كانت تستخدمهما . إلا أنها رهنت البيت دون علم أولادها . ولم يُعرف أبداً ما الذي فعلته بهذه النقود . يبدو أنها اعطته للاسكافي مصلح الأحذية ، الّذي انتقل بعد موتها إلى مدينة أخرى ، ويُقال إنه فتح متجراً أكبر لتفصيل الأحذية هناك .

إذا أمعنا النظر فانها عاشت حياتين متتاليتين : الأولى كإبنة وامرأة وأم ، والثانية باعتبارها ببساطة السيدة ب التي تعيش وحيدة دون التزامات وبامكانيات متواضعة إنما

كافية . الحياة الأولى استمرت حوالي ستة عقود من الزمن ، والثانية ليس أكثر من سنتين .

وقد وصل إلى علم أبي أنها في نصف السنة الأخيرة سمحت لنفسها ببعض الحريات التي لم يكن يعرفها الناس العاديون . فكانت تستيقظ في الصيف باكراً في الساعة الثالثة صباحاً وتتمشى عبر شوارع البلدة الفارغة ، بحيث تكون لوحدها تماماً . وتناقل الناس أنها دعت الخوري ، الذي كان يجيء لزيارتها ،ليؤنس المرأة العجوز في عزلتها ، إلى السينما . غير أنها لم تكن منعزلة إطلاقاً . فقد كان يحتك بالاسكافي ، كما يبدو ، جملة من الناس المرحين ، ويجري تبادل الكثير من الاحاديث . كانت تحتفظ هناك على الدوام بقنينة من نبيذها الأحمر . فتتناول منه كأساً ، بينما يتحدث الآخرون ويتناولون بألسنتهم أكابر المدينة . كان هذا النبيذ الأحمر مخصصاً لها ، إلا أنها كانت تحضر معها أحياناً مشروباً أقوى للجماعة .

وبدون أية مقدمات ، ماتت ، بعد ظهر يوم خريفي في حجرة نومها ، إنما ليس على السرير ، بل على كرسي خشبي إزاء النافذة . كانت قد دعت « المشوهة » إلى السينما ذاك المساء . وهكذا كانت الفتاة عندها ، عندما جاءها الموت . كان عمرها أربعة وستين عاماً .

لقد رأيت صورة لها وهي على فراش الموت ، أُخذت خصيصاً لأولادها . رأيت وجهها ضئيلاً كثير التجاعيد ، بفم ذي شفاه رقيقة إنما هو عريض . صغيرة جداً ، إنما ليست من الصغائر . ذاقت السنين الطويلة للعبودية وسنين الحرية القصيرة . واستهلكت خبز الحياة حتى فتاته الأخير .

* * *

قصص عن السيد كوينر

السيد كاف والطبيعة

سئل السيد كاف عن علاقته بالطبيعة فقال : «أتمنى أحياناً وأنا خارج من المنزل أن أرى بعض الأشجار . خصوصاً لأنها تصل بتغيّر مظهرها المتناسب مع أوقات اليوم والفصول إلى درجة فائقة الواقعية . كذلك يشوّشنا في المدن مع الزمن أن لا نرى على الدوام سوى أشياء للاستعمال ، كالمنازل والطرق ، فهي فارغة إذا لم تُسكن ولا معنى لها إذا لم تُستخدم . نظامنا الاجتماعي الخاص يجعلنا نعدّ حتى البشر بين الأشياء الاستعمالية . وهنا تمثّل الأشجار على الأقل بالنسبة لي ، أنا الذي لست نجاراً ، شيئاً قائماً بذاته يبعث على الارتياح ، شيئاً غير متعلق بي ، بل إني لآمل أن تمثّل حتى بالنسبة للنجار شيئاً لذاتها مما لا يمكن تقييمه». (كما قال السيد كاف : « من الضروري بالنسبة لنا ، أن نستخدم الطبيعة بشكل مقتصد . فالحياة في الطبيعة دون عمل ، توقع المرء بسهولة في حالة مَرَضية ، يصيبه ما يشبه الحمى») .

تنظيم

قال السيد كاف مرة : «الانسان المفكر لا يستعمل ضوءاً أكثر مما يلزم ، ولا قطعة خبز أكثر مما يلزم ،ولافكرة أكثر مما يلزم » .

الشكل والمادة

تأمل السيد كاف لوحة أعطت لما فيها من أشياء شكلاً مقصوداً لذاته .فقال : يحدث لبعض الفنانين ، وهم يتأملون العالم ، كما يحدث لكثير من الفلاسفة . لدى اهتمامهم بالشكل تضيع المادة لقدعملت مرة عند بستاني . ناولني مقصّ حدائق وطلب مني أن أقصقص شجرة غار . كانت الشجر مزروعة في أصيص ومعارة من أجل احتفالات معينة . وكان المطلوب أن تأخذ الشجرة شكل كرة . فبدأت مباشرة بقصّ الأغصان الناشزة . وكم بذلت من جهد كي أصل إلى شكل الكرة ، لكن ذلك بقي طويلاً مستعصياً عليّ . مرة أجد نفسي قد أكثرت من القصقصة في هذا الجانب ، ومرة في ذاك الجانب . وعندما حصلت أخيراً على شكل كرة ، كانت الكرة صغيرة جداً . فقال لي البستاني خائباً : « طيب ، هذه هي الكرة ، فأين شجرة الغار ؟ » .

خدمات الصداقة

كمثال على الطريقة الصحيحة في تقديم خدمة للأصدقاء سرد السيد كاف القصة التالية : جاء ثلاثة شبان إلى شيخ عربي وقالوا له : « توفي أبونا ، وترك لنا سبعة عشر جملاً . وقد أوصى للكبير النصف ، وللثاني بالثلث ، وللصغير بالتسع . وها نحن الآن لانستطيع الأتفاق على القسمة ، فتول أنت الأمر ! فكّر العربي مليّاًثم قال :«كما أرى ،

فأنتم ينقصكم جمل واحد ، كي تستطيعوا القسمة بشكل صحيح . أنا شخصياً ليس عندي سوى جمل واحد ، وهو تحت تصرفكم . خذوه واقتسموا ، ثم أحضروا لي ما يزيد » . شكروه على خدمة الصداقة هذه ، وأخذوا الجمل ، ومن ثم قسموا الثمانية عشر جملاً بينهم . فنال الكبير النصف ، أي تسعة ؛ والثاني الثلث ، أي ستة ؛ والصغير التسع ، أي جملين اثنين . ولدهشتهم ،فقد بقي ، بعد أن أبعدوا جمالهم ، جمل واحد . فأعادوه إلى صديقهم العجوز ، وهم يشكرونه من جديد » .

اعتبر السيد كاف خدمة الصداقة هذه صحيحة ، لأنها لم تتطلب أية تضحيات .

وفاء

أمضى السيد كاف ، الذي كان مؤيداً لتنظيم العلاقات الإنسانية ، طيلة حياته مشتبكاً في صراعات . في أحد الأيام تورط مرة أخرى في قضية مزعجة ، اضطرته لأن يقصد ليلاً عدة أماكن لقاء في المدينة ، بعيدة عن بعضها . ولأنه كان مريضاً ، فقد طلب من صديق له معطفه . فوعده الصديق به ، مع أنه بذلك سيتوجب عليه الاعتذار عن موعد صغير . في المساء ساءت حالة السيد كاف إلى درجة أن المشاوير لم تعد تفيده ، وأصبح محتاجاً إلى شيء آخر تماماً . مع ذلك وبالرغم من ضيق الوقت ، فان السيد كاف أسرع ، كي يحافظ هو الآخر على الموعد ، وأحضر في الوقت المحدد المعطف الذي لم تعد له حاجة إليه .

الغلام العاجز

تحدث السيد كاف عن سوء السلوك في أن يبلع المرء بصمت ظلماً وقع عليه ، وروى القصة التالية : أحد المارين سأل صبياً يبكي عن سبب زعله . قال الصبي: «كان لدي قرشان من أجل السينما ، فجاء صبي وخطف واحداً من يدي» . وأشار

إلى صبي يظهر للعيان من بعيد . سأله الرجل: «ألم تصرخ طالباً النجدة؟» .-« بلى» ، قال الصبي وقد ارتفعت حدة بكائه.-«ألم يسمعك أحد؟» ، تابع الرجل سؤاله وهو يلمّس على شعره متودداً .-«لا » ، قال الصبي وهو يشهق بالبكاء . فسأله الرجل : «أفلا تستطيع أن تصرخ أعلى ؟ . إذن هات هذا القرش !» . وأخذ من يده القرش الأخير وتابع سيره غير مبالٍ .

سؤال عن وجود إله

سأل أحدهم السيد كاف ،ما إذا كان يوجد إله . فقال السيد كاف : «أنصحك بأن تفكر ، ما إذا كان سلوكك سيتغير بحسب الجواب على سؤالك . فإذا كان لن يتغيرّ ،عندئذ يمكننا أن نهمل السؤال . وإذا كان سيتغيرّ ، فانني استطيع على الاقل أن أساعدك إلى الحد الذي أقول لك فيه ، بأنك قد حسمت أمرك : أنت تحتاج إلى إله .

أحاديث

قال السيد كاف لأحدهم :« نحن لم نعد نستطيع التحدث إلى بعضنا » . -«لماذا؟» ، قال الرجل مرعوباً .-« بحضورك لااستطيع التحدث بشيء معقول ،قال السيد كاف متذمراً .-« ولكن هذا لايهمني » ،قال له الرجل مواسياً . فقال له السيد كاف بمرارة : «أعتقد ذلك ،لكنه يهمني أنا !» .

ضيافة

كان السيد كاف ، إذا حل ضيفاً ،ترك حجرته كما وجدها ،لأنه لم يكن يرى أن يترك الناس بصماتهم على محيطهم . بالعكس كان هو يجهد نفسه لأن يغير طبعه بالشكل المناسب لا قامته ؛ إنما على أن لا يسبب له هذا معاناة .

السيد كاف في مسكن غريب

فيما كان السيد كاف يدخل مسكناً غريباً ،وقبل أن يستسلم للراحة ،نظر إلى مخارج البيت ولاشيءآخر . لدى سؤاله أجاب محرجاً: «هذه عادة غليظة قديمة . فأنا مع العدالة ؛ لذا من الجيد أن يكون لمنزلي أكثر من مخرج واحد » .

حكيم

جاء بروفيسور فلسفة إلى السيد كاف وحدثه عن حكمته . بعد برهة قال له السيد كاف :« جلستك غير مريحة ،حديثك غير مريح ، تفكيرك غير مريح» . غضب بروفيسور الفلسفة وقال :« لا أريد أن أعرف شيئاً عن نفسي ،بل عن مضمون ما قلته» . قال السيد كاف : «لا مضمون له . أراك تسير خبط عشواء ،وما من هدف رأيتك وصلته طيلة تتبعي لك . أنت تتحدث في الظلام ، وما قمت بأية إضاءة في حديثك . عندما أرى موقفك ،لا يعود هدفك يهمني » .

عندما يحبّ السيد كاف إنساناً

سئل السيد كاف: « ماذا تفعل ، إذا احببت إنساناً؟» . فقال: « أصنع عنه رسماً ، وأسعى لأن يكون شبيهاً به» .-«من؟ الرسم؟» . قال السيد كاف : «لا ، الانسان» .

السيد كاف والتساوق

في أحد الأيام طرح السيد كاف على أحد أصدقائه السؤال التالي : أحتك منذ

فترة قصيرة مع رجل يسكن مقابلي . الآن لم يعد لديّ رغبة بالاحتكاك به ؛غير أنه ينقصني السبب ، ليس للاحتكاك به فحسب ، بل للانفصال عنه . والآن اكتشفت أنه فور شرائه مؤخراً للبيت ،الذي كان حتى الآن يستأجره فقط ، قطع شجرة زلّاع أمام نافذته ،لأنها تحجب النور عنه ، مع أن ثمارها ما زالت نصف ناضجة . هل علي أن أتخذ من ذلك سبباً لقطع صلتي به ،على الأقل بالظاهر أو على الأقل بالباطن ؟» .

بعد بضعة أيام من ذلك روى السيد كاف لصديقه:«لقد قطعت الآن صلتي بالزلمه .تصور أنه كان قبل أشهر قد طلب من المالك السابق للبيت بأن يقطع الشجرة التي تحجب عنه النور .لكن هذا امتنع عن ذلك ،لأنه يريد الثمار . والآن ، عندما انتقل البيت إلى جاري ، فانه اقتلع الشجرة فعلاً ، وهي مليئة بالثمار غير الناضجة ! لقد قطعت صلتي به بسبب تصرفه غير المتساوق » .

أبوة الفكرة

كان المآخذ على السيد كاف بأنه كثيراً ما يكون عنده التمنّي أب الفكرة .أجاب السيد كاف : « مامن فكرة وجدت إلا وكان التمنّي أباها .إنما الخلاف يمكن أن يكون فقط حول : أي تمني ؟ .ليس للمرء أن يظن أنه من الممكن أن لايكون لطفل أي أب ،إنما أن يخمن أن تحديد الأبوة صعب » .

أصالة

اليوم تذمّر السيد كاف من أن ثمة كثيرين يتباهون أمام الملأ بأنهم يستطيعون أن يؤلفوا بمفردهم كتباً كبيرة ، والناس يقرّونهم على ذلك .لقد ألف الفيلسوف الصيني جوانغ دسي ، وهو ما زال في سن الكهولة ، كتاباً من مئة ألف كلمة ،تسعة أعشارها استشهادات . مثل هذه الكتب لم يعد بالامكان كتابتها عندنا ، لأنه ينقصنا الفكر . تبعاًلذلك أصبحت الأفكار تُصنع في الورشة الخاصة فحسب ،حيث يرى نفسه

كسولاًمن لا يصنع العدد الكافي منها . بالطبع لن يكون هناك عندئذ أفكار تُقتبس ، ولا تعابير عن الأفكار يُستشهد بها . فكم هو قليل ما يحتاجه هؤلاء جميعاً لعملهم ! مسكة قلم وبعض الورق ، هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيعون عرضه ! وبدون أية مساعدة ، وبالمواد الضئيلة التي يقدر فرد واحد بقوة زنده أن يؤمنها ،يقيمون أكواخهم! لا يعرفون أبنية أكبر من تلك التي بامكان فرد واحد أن يبنيها ! .

نجاح

رأى السيد كاف ممثلة تمرّ به فقال : «إنها جميلة» . قال مرافقه : « لقد أحرزت حديثاًنجاحاً ،لأنها جميلة» . فامتعض السيد كاف وقال :«هي جميلة لأنهاأحرزت نجاحاً» .

حول تيار«الحاضر من أجل الحاضر»

فيما كان السيد كاف أحد الأيام ضيفاً على أناس غرباء إلى حد ما ، اكتشف أن مضيفيه قد وضعوا أواني الفطور على طاولة صغيرة في زاوية من غرفة النوم ، تُرى من السرير . فانشغل باله ، بعد أن مدح في ذهنه أولاًمضيفيه ، بأنهم يتعجلون التخلص منه . وراز في نفسه ،ما إذا هو نفسه أيضاًكان سيحضّر الأواني للفطور ليلاً قبل أن يأوي إلى النوم . بعد شيء من التبصّر في الأمر وجد أنه بحد ذاته صحيح في أوقات معينه . كذلك وجد صحيحاً ،أن يشغل الآخرون أنفسهم أحياناً لبعض الوقت بهذه المسألة .

السيد كاف والقطط

لم يكن السيد كاف يحب القطط . بدت له أنها ليست صديقة للبشر ؛ بالتالي هو

أيضاًلم يكن صديقاً لها . قال : « لوكانت لنا نفس المصالح ، لكان موقفها العدائي سيان عندي » . غير أن السيد كاف لم يطردها من على كرسيه إلا مكرهاً . قال : « الاستلقاء للراحة عمل ، ويجب أن ينال نجاحاً » . كذلك كان ، إذا ماءت قطط أمام بابه ، يقوم من مجلسه ، حتى في البرد ، ويدعها تدخل إلى الدفء . قال : « حسابها بسيط ، عندما تنادي ، يفتح المرء لها . وإذا أقلع المرء عن أن يفتح لها ، فإنها لا تعود إلى المناداة . النداء ، هذا تقدم » .

حيوان السيد كاف المفضّل

عندما سئل السيد كاف ، أي حيوان يفضّل ، ذكر الفيل وعلل ذلك هكذا : الفيل يجمع المكر مع القوة . وهو ليس المكر الذي يكفي لأن يتخلّص من مطاردة أو أن يحظى المرء بطعام ، بحيث لا يلفت النظر ، بل المكر الذي يتصرف بالقوة للقيام بالمهام الكبيرة . حيث يكون هذا الحيوان ، يترك أثراً عريضاً . ومع ذلك فهو طيب القلب ، يفهم الدعابة . هو صديق طيب ، كما أنه عدو طيب ، ضخم جداً وثقيل ، إنما أيضاً سريع جداً . خرطومه يُدخل للجسد الهائل أيضاً أصغر المأكولات ، حتى الجوز . أذناه قابلتان للتوجيه : لا يسمع إلا ما يروق له . كما أنه يعمّر كثيراً . وهو أيضاً اجتماعي ، وهذا ليس فقط تجاه الفيلة . في كل مكان يحبه الناس مثلما يخشونه . بعض الهزل يجعل بالإمكان أن يقوم المرء حتى باحترامه . لديه جلد سميك ، تتكسّر عليه السكاكين ، لكنه رقيق العاطفة . يمكن أن يحزن . يمكن أن يغضب . وهو يرقص برغبة . يموت في الأدغال . يحب الأطفال والحيوانات الأخرى الصغيرة . هو رمادي ولا يثير الانتباه إلا بضخامته . لا يؤكل . يستطيع العمل جيداً . يشرب برغبة ويصبح مرحاً . وهو يفعل شيئاً للفن : يقدّم العاج .

العصر القديم

أمام صورة « تكوينية » للرسام لوند شتروم ، تعرض بضع أباريق ماء ، قال

السيد كاف : « صورة من العصر القديم ، من عصر بربري ! وقتذاك ما كان الناس يميّزون الأشياء ، لم يكن المدوّر يظهر لهم مدوّراً ، ولا المدبّب مدبّباً . وكان على الرسامين أن يضعوا الأمور في مواضعها وأن يعرضوا للزبائن أشياء معينة ، جليّة ، ذات أشكال محدّدة ؛ كانوا يرون الكثير من الأشياء المبهمة ، المتداخلة ، غير الموثوقة ، لذلك كانوا نهمين إلى النزاهة ، بحيث أنهم كانوا يهلّلون للرجل الذي لا يساوم على جنونه . كان العمل موزعاً بين كثيرين ، هذا ما يراه المرء من هذه الصورة . أولئك الذين حدّدوا الشكل ، لم يهتموا للغاية من الأشياء ، فمن هذا الابريق لا يستطيع المرء أن يصبّ الماء . لا بد أن كثيراً من الناس كانوا وقتذاك يُعتبرون مجرد أشياء للاستخدام . وضد هذا أيضاً يجب أن يتوجه الفنانون . عصر بربري ، ذلك العصر القديم » . ولقد لُفت نظر السيد كاف إلى أن الصورة من العصر الحالي . فقال السيد كاف حزيناً : «نعم، من العصر القديم » .

قضاء

•

كثيراًما ذكر السيد كاف كمثال يحتذى بشكل ما لائحة قضائية للصين القديمة ، تقضي في حالات القضايا الكبيرة باستقدام قضاة من مناطق بعيدة . هكذا ستكون رشوتهم أصعب بكثير (حتى لو كانوا قابلين للرشوة) ، ذلك لأن القضاة المحليين يراقبون نزاهتهم ـ وهم أناس ضليعون في هذا المجال تحديداً وينوون لهم السوء . كذلك لا يعرف القضاة المستقدمون عادات وأحوال المنطقة من خلال خبراتهم اليومية . فكثيراً ما ينال الباطل ببساطة لباس الحق لكثرة حدوثه . كان على القضاة الجدد أن يستمعوا إلى كل شيء من جديد ، فيكتشفون من ذلك ما يلفت النظر . وأخيراً ، ما كانوا مضطرين ، من أجل فضيلة الموضوعية لأن يسيئوا إلى فضائل أخرى مثل الاعتراف بالجميل ومحبة الأطفال وسلامة النية تجاه المعارف الأقربين ، أو لأن تكون لديهم الشجاعة الكافية لكسب أعداء في محيطهم .

جواب وجيه

سئل عامل أمام المحكمة ، ما إذا كان يريد أن يقسم اليمين العلماني أم الكنسي . فأجاب : أنا عاطل عن العمل . ـ « هذا لم يكن مجرد شرود في الذهن » ، قال السيد كاف ، « فبهذا الجواب عبّر عن أنه في وضع لم يعد فيه لمثل هذه الأسئلة ، بل ربما لإجراءات المحكمة برمتها ، أي معنى » .

سقراط

بعد مطالعة كتاب حول تاريخ الفلسفة تحدث السيد كاف باستهجان عن محاولات الفلاسفة ، لأن يفترضوا الأشياء غير قابلة للإدراك من حيث المبدأ . قال : « عندما ادّعى السفسطائيون أنهم يعرفون الكثير دون أن يكونوا قد تعلموا شيئاً، تقدم السفسطائي سقراط بادعائه المتغطرس ، بأنه يعلم أنه لا يعلم شيئاً . كان يتوقع المرء أن يُضيف إلى جملته : لأنني أنا أيضاً لم أتعلم شيئاً.(كي نعلم شيئاً ، يجب أن نتعلم). لكن يبدو أنه لم يزد على قوله ، ولعل التصفيق الهائل الذي انفجر بعد جملته الأولى والذي استمر ألفي سنة قد ابتلع أي جملة تالية».

الوزير المفوّض

حديثاً تكلمت مع السيد كاف عن حادثة الوزير المفوض لدولة أجنبية ، السيد سين ، الذي قام في بلدنا بانجاز مهام معينة لصالح حكومته والذي بعد عودته ـ كما علمنا متأسفين ـ عوقب بقسوة ، مع أنه عاد بنجاحات كبيرة . قلت : « اتهموه بأنه من أجل انجاز مهامه قد تمادى في اتصاله بنا ، نحن الأعداء . فهل تعتقد أنه كان سيحقق نجاحاً دون هكذا سلوك ؟ ـ « بالتأكيد لا » ، قال السيد كاف ، « كان عليه أن يأكل جيداً ، كي يستطيع التفاوض مع الأعداء ، أن يتزلف للمجرمين وأن يتندّر عن بلاده ،

كي يحقق هدفه » . سألته : « إذن تصرف بشكل صحيح ؟ » . فقال السيد كاف ساهياً : « لقد تصرف هنا بشكل صحيح » . ثم أراد السيد كاف أن يودعني . لكني استوقفته من كمّه. وهتفت مستنكراً : « فلماذا إذن عومل بهذه المهانة ،عندما عاد ؟ » . قال السيد كاف بلا مبالاة : « لعله تعوّد على الطعام الطيب ، وتابع اتصاله بالمجرمين وأصبح متردداً في قراراته . وهنا يتوجب عليهم أن يعاقبوه » . فسألته مذهولاً : « وهل هذا برأيك تصرف صحيح من قبلهم ؟ » . قال السيد كاف : « نعم ، بالطبع ،فكيف كان عليهم أن يتصرفوا ؟ كان لديه الجرأة والفضل بأن يتولى مهمة قاتلة . وقد مات في سبيلها . أكان عليهم بعدئذ ، بدل أن يدفنوه ، أن يدعوه يفسد في الهواء وأن يتحملوا نتنه ؟ » .

الدافع الطبيعي للملكية

عندما كان أحدهم يذكر دافع الملكية في مجتمع ما على أنه طبيعي ، كان السيد كاف يروي القصة التالية عن صيادي السمك من السكان الأصليين : « على الشاطىء الجنوبي من ايسلاندا يوجد صيادو سمك يقسمون البحر هناك بواسطة عوّامات راسية بشكل دائم إلى قطع يتوزعونها فيما بينهم . وهم شديدو التعلق بهذه الحقول المائية على أنها ملك لهم . يشعرون بأنهم مجبولون معها ، فلا يتخلون عنها أبداً ، حتى لو لم يعودوا يرون فيها أي سمك ، ويزدرون سكان مدن المرافىء الذي يبيعونهم ما يصطادون ، لأنهم يرون فيهم جنساً من البشر السطحيين المفطومين عن الطبيعة . أما هم فيسمون أنفسهم مائيي المستوى . عندما يصطادون سمكات ضخمة ، يحتفظون بها لديهم في أحواض ويطلقون عليها اسماء ويتعلقون بها على أنها ملك لهم . منذ بعض الوقت تسوء حالتهم الاقتصادية ، لكنهم يرفضون باصرار كل محاولات الاصلاح ، لدرجة أنهم أسقطوا عدة حكومات لم تحترم عاداتهم . مثل هؤلاء الصيادين يقدمون برهاناً قاطعاً على سلطة دافع الملكية الذي يخضع له الانسان بحكم الطبيعة » .

لو كانت أسماك القرش بشراً

سألت الأبنة الصغيرة لصاحبة البيت السيد كاف : « لو كانت أسماك القرش بشراً ، هل ستكون عندئذ ألطف تجاه الأسماك الصغيرة ؟ » . قال : « بالتأكيد . لو كانت أسماك القرش بشراً ، لأقامت في البحر أقفاصاً جبارة ، مليئة بشتى الأغذية ، النباتية والحيوانية . ولحرصت على أن يكون للأقفاص على الدوام ماء نظيف ، ولاتخذت جميع الاجراءات الصحية اللازمة . لو مثلاً انجرحت زعنفة سُميكة ، فانه سيوضع لها رباط على الفور ، كي لا تفقدها أسماك القرش قبل الأوان . وكي لا تصبح السُميكات مكتئبة ، ستقام لها أعياد مائية ، ذلك لأن السميكات المرحة ألذ طعماً من السميكات المكتئبة . من الطبيعي أنه ستكون هناك أيضاً مدارس في الأقفاص الكبيرة . في هذه المدارس ستتعلم السميكات كيف تسبح في بلاعيم اسماك القرش . ستتعلم مثلاً جغرافيا ، كي تستطيع أن تجد أسماك القرش الكبيرة التي تستلقي كسولة في مكان ما . المهم طبعاً هي التربية الأخلاقية للسميكات . سوف تتعلم أن أعظم الأعمال وأجملها تتحقق عندما تضحي السميكة بنفسها راضية ، وأن تثق جميع السميكات بأسماك القرش ، وخاصة عندما تقول هذه بأنها تسعى لمستقبل مشرق . سوف تُلقَن بأن هذا المستقبل لن يتأمن إلا إذا تعلمت الطاعة . ويجب على السميكات أن تقي نفسها من كل النزعات المنحطة والمادوية والأنانية والماركسية ، وأن تبلّغ فوراًأسماك القرش ، عندما تصدر عن واحدة في صفوفها نزعة كهذه . لو كانت أسماك القرش بشراً ، فانها بالطبع ستثير أيضاً الحروب فيما بينها ، كي تحتل أقفاصاً أجنبية وسميكات أجنبية . ستقوم بالحروب بواسطة سميكاتها الخاصة . وسوف تُعلِّم السميكات بأن بينها وبين سميكات أسماك القرش الأخرى فروقاًهائلة . سيذيعون ، إن السميكات كما هو معلوم خرساوات ، لكنها تصمت في لغات مختلفة تماماً ولذلك يستحيل التفاهم بينها . كل

سميكة تقتل في الحرب بضع سميكات أخرى ، معادية ، صامتة في لغة أخرى ، ستُمنح وساماً صغيراً من الطحلب البحري وتُعلن بطلة . لو كانت أسماك القرش بشراً ، لوجد عندها بالطبع أيضاً فنون . لوجدت صور جميلة ، تعرض فيها أسنان أسماك القرش بألوان أخّاذة ، وبلاعيمها كمنتزهات خالصة ، يلهو المرء فيها بابتهاج . أما المسارح في قاع البحر فستعرض كيف تسبح السميكات بشجاعة بطولية في بلاعيم القرش ، والموسيقى ستكون جميلة لدرجة أن جموع السميكات ستتدفق مع أنغامها ، والفرقة في المقدمة ، حالمة وغارقة في أحلى الأفكار ، إلى بلاعيم القرش . كذلك سيكون هناك أديان ، لو كانت أسماك القرش بشراً . سوف تُعلّم السميكات أن حياتها الصحيحة لن تبدأ إلا في جوف أسماك القرش . وعلى فكرة ، لو كانت أسماك القرش بشراً ، فلن تبقى السميكات ، كما هي الآن ، متساوية . بعض السميكات سوف تتقلد مناصب رسمية وتترأس الأخريات . بل إن السميكات الأكبر قليلاً سيحق لها افتراس السميكات الأصغر . ولن يلاقي هذا سوى القبول من أسماك القرش ، لأنها بذلك ستحصل أكثر من ذي قبل على قطع أكبر . والسميكات الأكبر ذوات المناصب ستحفظ النظام فيما بين السميكات ، وتصبح معلمات وضابطات ومهندسات الخ في المباني القفصية . باختصار ، لو كانت أسماك القرش بشراً ، لوجدت وقتئذ ، وقتئذ فقط حضارة في البحر» .

المديح

عندما سمع السيد كاف ، أن بعض تلامذته السابقين مدحوه ، قال : « بعد أن يكون التلاميذ قد نسوا تماماً أخطاء المعلم ، يكون هو بالذات ما زال يذكرها » .

انتظار

انتظر السيد كاف شيئاً لمدة يوم ، ثم لمدة أسبوع ، ثم بعدئذ لمدة شهر . وفي

النهاية قال : « كنت أستطيع أن أنتظر الشهر بشكل جيد ، إنما ليس هذا اليوم وهذا الاسبوع » .

عبد الغاية

طرح السيد كاف الأسئلة التالية :

« كل صباح يعزف جاري موسيقى بصندوق الحاكي . لماذا يعزف موسيقى ؟ سمعت ، لأنه يتمرن . لماذا يتمرن ؟ سمعت ، لأنه يحتاج إلى قوة . لأي شيء يحتاج إلى قوة ؟ قال ، لأن عليه أن يتغلب على أعدائه في المدينة . لماذا عليه أن يتغلب على الأعداء ؟ سمعت ، لأنه يريد أن يأكل » .

بعد أن سمع السيد كاف ، أن جاره يعزف موسيقى كي يتمرن ، يتمرن كي يكون قوياً ، يريد أن يكون قوياً كي يهزم أعداءه ، يهزم أعداءه كي يأكل ، طرح سؤاله : لماذا يأكل ؟ .

الفن في أن لا ترتشي

نصح السيد كاف تاجراً باستخدام رجل بسبب نزاهته . بعد اسبوعين عاد التاجر إلى السيد كاف وسأله : « ماذا عنيت بالنزاهة ؟ » . قال السيد كاف : « عندما أقول أن الرجل الذي استخدمته نزيه ، أعني بذلك أنك لا تستطيع رشوته » .
- « هكذا »، قال التاجر متكدراً ، « وها أنا عندي سبب لكي أتخوف من أن زلمتك يقبل حتى أن يرتشي من أعدائي » . - « هذا ما لا أعلمه » ، قال السيد كاف دون اهتمام . فهتف التاجر بمرارة : « وهو يردد كلامي دائماً ، إذن فهو يقبل الرشوة مني » . ابتسم السيد كاف معجباً بنفسه وقال : « مني لا يقبل الرشوة » .

حب الوطن ، كراهية الأوطان الأخرى

كان السيد كاف لا يرى ضرورة في أن يعيش المرء في بلد معين . قال : « أستطيع أن أجوع في كل مكان » .لكنه في أحد الأيام سار عبر مدينة محتلة من عدو البلاد التي يعيش فيها . وإذا بضابط من الأعداء يقابله ويرغمه على أن ينزل عن الرصيف . ونزل السيد كاف واكتشف في نفسه أنه كان مستثاراً ضد هذا الرجل ، وليس فقط ضد هذا الرجل ، بل خصوصاً ضد البند الذي ينتمي اليه ، بحيث كان يتمنى أن تبتلعه الأرض . وتساءل السيد كاف : « فلماذا أصبحتُ في تلك الدقيقة متعصّباً قومياً ؟ ذلك لأنني التقيت بمتعصّب قومي . ولهذا ، فيجب اجتثاث الغباء ، لأنه يجعل من يلتقيه غبياً » .

جوع

كان السيد كاف قد أجاب بخصوص سؤال عن الوطن : « أستطيع أن أجوع في كل مكان » . وقد سأله مستمع دقيق ، كيف له أن يقول ، إنه يجوع ، بينما في الواقع لديه ما يأكله . فبرر السيد كاف لنفسه قائلاً : « ربما أردت القول ، إنني أستطيع أن أعيش في كل مكان ، إن كنت أريد العيش حيث يسود الجوع . أعترف بأن ثمة فرقاً كبيراً بين أن أجوع أو أن أعيش حيث يسود الجوع . ولكن اسمح لي أن أبرر موقفي بالقول ، بالنسبة لي الحياة حيث يسود الجوع ، إذا لم تكن سيئة مثل الجوع ، فانها على الأقل سيئة جداً . لعله ليس مهماً بالنسبة للآخرين أن أجوع ، لكنه مهم أن أكون ضد أن يسود الجوع » .

اقتراح ، عندما لا يؤخذ بالاقتراح

كان السيد كاف يوصي زيادة في الخير بأنه من الأفضل أن يرفد كل اقتراح باقتراح

آخر ، في حالة أنه لم يؤخذ بالاقتراح . عندما نصح هو مثلاً أحدهم ، وكان في وضع سيء ، بتدبير معين ، يضرّ بأقل ما يمكن من الناس الآخرين ، وصف له أيضاً تدبيراً آخر ، أقل طيبة ، إنما ليس الأكثر لؤماً . قال : « من لا يستطيع الكل ، لا يجوز أن ندع له الأقل » .

الموظف الذي لا يُستغنى عنه

سمع السيد كاف من يثني على موظف يمارس مهامه منذ وقت طويل نسبياً ، بأنه لا يُستغنى عنه ، إلى هذا الحد هو موظف جيد . فسأل السيد كاف منزعجاً : « كيف لا يُستغنى عنه ؟ » قال مادحوه : « ما كان العمل ليسير بدونه » . فقال السيد كاف : « كيف يكون عندئذ موظفاً جيداً ، إذا كان العمل لا يسير بدونه ؟ كان لديه الوقت الكافي ، كي ينظم عمله إلى الحدّ الذي يمكّن من الاستغناء عنه . فبما يشغل نفسه حقاً ؟ أنا أقول لكم : بالابتزاز ! » .

أسئلة مقنعة

قال السيد كاف : « لاحظت أننا ننفّر الكثيرين من فكرنا من خلال أننا نعرف لكل شيء جواباً . ألا يمكننا على سبيل الدعاية أن نضع قائمة بالمسائل التي تبدو لنا كلياً غير محلولة ؟ » .

عناء الأفضلين

سئل السيد كاف : « فيمَ تعمل ؟ » . أجاب : « أنا مجهد جداً ، إنني أحضّر لغلطتي التالية » .

اساءة محتملة

اتُّهم أحد مساعدي السيد كاف بأنه يقف منه موقفاً غير وديّ . فدافع عنه السيد كاف : « أجل ، إنما فقط من وراء ظهري » .

مدينتان

فضّل السيد كاف المدينة باء على المدينة ألف ، فقال : في المدينة ألف أحبني الناس ، لكن في المدينة باء عاملوني بلطف . في المدينة ألف كانوا مفيدين لي ، لكن في المدينة باء احتاجوا لي . في المدينة ألف دعوني إلى المائدة ، لكن في المدينة باء دعوني إلى المطبخ » .

اللقاء

التقى بالسيد كاف رجل لم يره منذ مدة طويلة . فحياه بقوله : « أنت لم تتغيّر إطلاقاً » . فقال السيد كاف : « اوه » ، وشحب لونه ! .

سائقان

سئل السيد كاف عن اسلوب عمل اثنين من رجال المسرح ، فقارن بينهما كما يلي : « أنا أعرف سائقاً يعرف قواعد المرور جيداً ويلتزم بها ويعلم كيف يستفيد منها . يدري متى يشدّ مسرعاً ، ومتى يحافظ على السرعة النظامية ، كي يصون محركه ، وهكذا بحذر وشجاعة يجد طريقه بين بقية المركبات . وأعرف سائقاً آخر ، يتصرف بغير ذلك . هو مهتم بأكثر من طريقه ، مهتم بكامل السير ويشعر أنه مجرد جزيء منه . لا يعي حقوقه ولا يتميز شخصياً بشيء خاص . يسوق وعقله في السيارة التي أمامه والسيارة التي خلفه ، متسلياً على الدوام بتقدم كل السيارات ، بل وحتى المشاة » .

السيد كاف يقود سيارة

تعلم السيد كاف قيادة السيارات ، لكنه في البدء لم يسق بشكل جيد . قال معتذراً : « تعلمت للتو قيادة السيارات . على أنه يجب أن يكون ممكناً للمرء قيادة سيارتين ، أي كذلك أيضاً السيارة التي قدام سيارته . فعندما يراقب المرء كيف هي أحوال السير بالنسبة للسيارة التي قدامه ويحكم على معيقاتها ، عندئذ فقط يعرف المرء كيف يتصرف بالنسبة لسيارته » .

اجراءات ضد القمع

عندما تكلم السيد كاف ، هو المفكر ، في صالة أمام كثيرين ضد القمع ، لاحظ كيف انفضّ عنه الناس وولوا . تطلع حوله فرأى وراءه واقفاً : القمع . سأله القمع : « ماذا تقول ؟ » . أجاب السيد كاف : « أتكلم مؤيداً القمع » . وعندما غادر السيد كاف ، سأله تلامذته عن صلابته . فأجابهم السيد كاف : « ليس لديّ صُلب(*) للتحطيم . أنا بالذات يجب أن أعيش أطول من القمع » . وروى السيد كاف القصة التالية :

في أحد الأيام من عهد اللاشرعية دخل إلى مسكن السيد إغه ، الذي تعلّم أن يقول لا ، أحد الأشخاص وأبرز له تصريحاً صادراً باسم الحاكمين للمدينة يتضمن وجوب امتلاكه لكل مسكن يطأه ، وكذلك نواله لكل طعام يطلبه ، وكذلك أن يخدمه كل رجل يراه . جلس العنصر على كرسي ، طلب طعاماً ، اغتسل ، استلقى ، ثم

(*) في الألمانيه Rueckgrat ، استخدم التلامذة المعنى المجازي وهو قوة العزيمة (هنا : الصلابة) ، واستخدم السيد كوينر المعنى المادي وهو العمود الفقري (هنا : الصُلب) . ـ ملاحظة من المترجم .

طلب وهو يدير وجهه نحو الحائط قبل أن يغفو : « هل ستخدمني ؟ » . دثّره السيد إغه بغطاء ، وكشّ عنه الذباب ، وسهر على نومه ، وبقي على هذا المنوال مطيعاً له مدة سبع سنوات . لكنه ، مهما فعل له ، كان يحترس من فعل شيء واحد ، وهو أن يقول كلمة واحدة . وبعد مضي سبع سنوات ، وقد أصبح بديناً من كثرة الأكل والنوم والأمر ، مات العنصر . هنا لفّه السيد إغه بالغطاء البالي ، وسحبه إلى خارج البيت ، وغسل المكان ، وطرش الجدران ، وتنفس الصعداء وأجاب : « لا » .

التنجيم

دعا السيد كاف الناس الذين يطلبون قراءة طالعهم ، أن يذكروا لمنجميهم تاريخاً من الماضي ، يوماً جرى لهم فيه حادث سعد أو نحس غير عادي . عندئذ يجب أن يتمكن المنجم بقراءة الطالع من الكشف بعض الشيء عن هذا الحدث . لكن السيد كاف لم يلاق نجاحاً بهذه النصيحة . ذلك لأن المؤامنين بالتنجيم تلقوا بالفعل من منجميهم معلومات عن موافقة أو معاكسة النجوم بما لا يتفق مع ما جرى لهم ، غير أنهم قالوا بعدئذ بامتعاض ، إن النجوم لا تدل إلا على امكانيات معينة وهذه يمكن بلا ريب أن تكون قد حدثت في التواريخ المعطاة . وقد بدا السيد كاف متفاجئاً بذلك ، وطرح سؤالاً ثانياً : « كذلك لا أفهم أن يكون البشر خلافاً لكل المخلوقات واقعين تحت تأثير النجوم . فلا شك أن هذه القوى لن تدع ببساطة الحيوانات بمنجاة منها . ولكن ، ما الذي يحدث إذا كان إنسان ما من برج الحوت ، إنما يحمل برغوثاً من برج الثور ، يغرق في النهر ؟ عندئذ سيغرق البرغوث معه على الأرجح ، مع أن طالعه قد يكون سعداً . هذا لا يعجبني » .

* * *

المحتوى

صدر للمترجم :

- المادية الجدلية والتحليل النفسي ،تأليف فيلهلم رايش ، الطبعة الأولى ، بيروت 1980 .

- الأزمات الاقتصادية ، تأليف أ . راينهولد ، دار الفارابي ، بيروت 1980 .

- أصل الفروق بين الجنسين ، تأليف أورزولا شوي ، دار التنوير ،بيروت 1982 .

- الطوطم والتابو ، تأليف زيغموند فرويد ، دار الحوار ، اللاذقية 1983 .

- نمط الإنتاج الآسيوي في فكر ماركس وأنغلز ،دار الحوار ، اللاذقية 1988 .

منشورات عين الزهور ـــ اللاذقية